

مُحَمَّد ﷺ

في شِعْر النَّصَارَى العرب

تقديم :

محمّد عبد الشّافي القُوصِي

منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1432هـ/2011م

﴿ إن من البيان لسحراً..
وإن من الشعر لحكمة ﴾

صدق رسول الله

تقديم

المكانة السامية التي حظيت بها شخصية النبي الخاتم رسول الله ﷺ شاع ذكرها في الأمم، ووثَّق أخبارها العلماء، واطمأنت إلى رواياتها القلوب والعقول، وذلك لأسباب منها كونها أصحَّ سير الأنبياء التي وصلت كاملة عبر الزمن، وأن ذلك كان عن طريق أربعة مصادر ذات مصداقية عالية، هي القرآن الكريم الذي لم يتدخل الزمن ولا الإنسان في تغيير آياته، حيث وصل إلينا محفوظاً في الصدور ومكتوباً في السطور، ثم السنة النبوية الصحيحة التي بذل ثقاة الأمة كامل جهدهم لتصل إلينا سليمة من التحريف والتغيير. وثالث تلك المصادر كتبُ السيرة النبوية التي تتبعت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام منذ ولادته إلى يوم وفاته، وكانت صادقة فيما اعتمدت فيه على النصوص الموثوقة من كتاب وسنة، وقد سهلت كثرة طرق روايات السيرة النبوية على الباحثين مهمة تنقيحها ونقدها. أما رابع هذه المصادر، فهي كتب التاريخ، وهي عرضة لما تتعرض إليه المصادر البشرية من أخطاء، ولكنها في حالة الرسول الكريم أقلُّ خطأً من غيرها، وذلك لما تميزت به الحضارة الإسلامية من وفرة المخطوطات القديمة مقارنة بغيرها من الحضارات السابقة، ولقرب شخصية الرسول ﷺ من عصر الازدهار المعرفي الذي نعيشه مقارنة بغيره من الأنبياء.

وبذلك وصلت إلينا أوضحُ وأدقُّ سيرة لشخصية تاريخية على الإطلاق، وإن رام بعضُ أعداءِ الإسلام تشويهها، ولكنهم فشلوا، واعترف آخرون من أهل ملتهم بفضلها وميزاتها العديدة فأنصفوا صاحبها، وكتبوا في ذلك شعراً ونثراً وحققوا ودرسوا وبحثوا وأنتجوا.

والكتابُ الذي بين أيدينا بعنوان **محمد في شعر النصارى العرب** للأستاذ محمد عبد الشافي القوصي مثال لما تحتله هذه الشخصية الكريمة العظيمة من مكانة في قلوب بعض النصارى العرب، وهو يذكرنا بكتاب نفيس لنصراني منصف، هو كتاب **محمد: الرسول والرسالة** للكاتب الدكتور نظمي لوقا الذي برهن فيه بالأدلة العلمية الكافية على صدق الرسول وصحة الرسالة، وأضفى عليه من مشاعر المودة والتقدير ما يعبر عن نفسية مؤمنة ومعدن نفيس.

ويجمع كتاب الأستاذ محمد عبد الشافي القوصي في صفحاته مقدمة دراسية مهمة عن المدائح النبوية، والمعارضات الشعرية، وشهادات النصارى في رسول اللهﷺ، ثم يصل من ذلك إلى نماذج من شعر النصارى في مدح الرسول الأمين، واقفاً عند شخصية مهمة في هذا المجال هي شخصية الشاعر ميخائيل ويردي، وعلى الأخص ما ورد في قصيدته نهج البردة.

ويأتي هذا الكتاب في ظروف ترتفع فيها أصواتٌ حاقدة تهدف إلى تشويه الإسلام وشخصية النبيﷺ على وجه الخصوص، وتحاول المس بالعلاقة الطيبة بين المسلمين والنصارى العرب وغيرهم، وتلك عصبية مقيتة تولى كبرها المتعصبون منذ زمن بعيد، لكنها ظهرت في أسوأ وجوهها منذ أواخر القرن الماضي، مع بروز مغالطة الخوف من الإسلام، وكان للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - دورٌ بارز في مواجهتها بالكلمة والموقف عبر الندوات والمؤتمرات والكتب والتصريحات، وليس هذا الكتاب إلا نموذجاً واحداً لما تنشره المنظمة في هذا السبيل.

ويسرني أن أقدِّم خالص الشكر والتقدير للأستاذ محمد عبد الشافي القوصي على هذه الروح الطيبة التي عرض بها كتابه، وأن أشيد بهذه الأقلام الأدبية النصرانية التي أنصفت نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، وانتصرت بكتاباتها للحقيقة، غير عابئة بما يدونه المبطلون من من أراجيف تهدف إلى المساس بخاتم الأنبياء والمرسلين.

أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل لبنة أخرى قوية في جدار الدفاع عن هذا النبي العظيم ضدَّ تلك الهجمة الشرسة المعادية للإسلام والمسلمين.

والله ولي التوفيق والسداد.

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم والثقافة

مقدمة

لَمْ تتوقف الكتابة لحظة واحدة عن ﴿ سيّد المرسلين ﴾ منذ أن طرقَ العالَمَ هذا ﴿ النَّبَأُ العَظِيم ﴾ الذي تزلزلتْ له السماواتُ والأرض ! بلْ اجتهد العلماء والأدباء والمفسرون والمؤرخون والفلاسفة والمستشرقون في شرح وتفسير أقواله كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً ! أو على حد قول المؤرخ اللبناني فيليب حتى : «لمْ توجد شخصية خضعت سائر أقواله وأفعاله للدراسة والنقد والتحليل الذي لا مثيل له في التاريخ كمُحمّد». فوجدوها يصدّق بعضها بعضاً. كما سجّل معاصروه أقواله وأفعاله وطبّقوها بدقّة بالغة، ونقلوا أخلاقه وأوصافه وشمائله، ووصفوا طعامه وشرابه ولباسه وقيامه وقعوده ونومه، حتى ملامح وجهه عند السرور وعند الغضب، منذ ولادته حتى وفاته.. لدرجة أنهم تحدّثوا عن الحُمْرة التي كانت في بياض عينيه. وقالوا أيضاً : مات رسولُ الله وفي رأسه ثلاث عشرة شعرة بيضاء ! وسجّلوا جميع حركاته وسكناته، كقولهم : أشار بإصبعيه الوسطى والسبّابة.. أوْ كان مُتّكِئاً فجلس.. أوْ ضحِك حتى بدتْ نواجذه.. أوْ تهلّل وجههُ من السرور.. وما إلى ذلك من أدق أوصاف الهادي البشير !.

ولا عجب في ذلك على الإطلاق ؛ فمُحمَّد أشرف من خطّ باسمهِ القلم.. وأطهر من شدا بذِكْرِهِ اللسان.. وأزكى من افتُتِحَ الكلام بالصلاة عليه واختُتِم.. وأعزّ من خلق الله وبرأ ؛ وأخذ العهد على الأنبياء بتصديقه والبشارة به ونصرته.

وتتالتْ عنه بشارات الأنبياء.. فجاء في الأسفار وصفه ونعته، ومولده، ومهجره، وقبلته، ولُغته، وتمكين الله لدعوته ورسالته. فخاطبهُ ربُّه في مزامير داود، بقوله : «أنتَ أبرعُ جمالاً من بني البشر. انسكبت النعمةُ على شفتيْك. لذلك باركَكَ الله إلى الأبد.. لأنّ بهاءكَ وحمدكَ البهاء الغالب.. وإنَّ ناموسكَ وشرائعكَ مقرونة بهيبة يمينك. وسهامكَ مسنونة. والأُمم يخرّون تحتك» (المزمور : 45 : 3-5).

وناداهُ ربّه في ″سِفْر إرميا، الإصحاح الأول″ قائلاً : «مِنْ قبل أن أُصوِّركَ في الرَّحِم عرَّفتك. ومن قبل أن تخرج من البطن قدّستك. وجعلتك نبياً للأُمم. لأنكَ بكل ما آمركَ تصدع. وإلى كل من أُرسلكَ تتوجّه. يقول الربّ : وأفرغتُ كلامي في فمكَ إفراغاً. فتأمل وانظر...».

وجاءت البشارة به واضحة جلية في سِفْر إشعيا، في قوله : «اسمعي يا سموات. وقَرّي يا أرض. ولماذا تقلقي ؟ سيُبعثُ عليكِ نبيّ به تُرحمي» (الإصحاح الأول).

ثم أخبر عن عالمية رسالته، فقال : «إنّي أقمتكَ شاهداً للشعوب. ومُدبِّراً وسلطاناً للأُمم. لتدعو الأُمم الذين لم تعرفهم. وتأتيكَ الأُمم الذين لم يعرفوك هرولة وسِراعاً» (الإصحاح الثامن والعشرون).

وقال في حقه السيّد الحصور يحيى بن زكريا : «هناك نبيٌّ قادم بعدي، هو أقوى منّي، لدرجة أنني لا أستحق حلّ سيور حذائه..» (إنجيل متى، الإصحاح الثالث).

وأفاض أخوه المسيح في وصفِه، فقال : «إنَّ البارقليط الذي يرسله أبي يُعلِّمكم كل شيء. ولنْ يجيئكم ما لمْ أذهب. فإذا جاء وبّخ العالم على الخطيئة. ويسوسكم بالحق. وإنَّ أموراً كثيرة أُريد أن أقولها لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمَّا متى جاء ذاك روح الحق فهو سيرشدكم إلى جميع الحق. لأنهُ لا يتكلّم من نفسه. بلْ كل ما يسمع يتكلّم به، ويخبركم بأُمورٍ آتية..» (إنجيل يوحنا، الإصحاح 15-16).

ومدحه ربّه في القرآن الكريم، قائلاً : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ** ﴾ (آل عمران : 159). وزكّاه بقوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم : 4). ووصفه قائلاً : ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (التوبة : 128). وأقسم بحياته، فقال : ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ (الحجر : 72). وأخبر عن دورهِ المنوط به فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً** ﴾ (الأحزاب : 45-46). وأمر بالصلاةِ والسلام عليه، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ (الأحزاب : 56).

إذنْ.. فِيمَ العجب.. إذا رأينا (المكتبة المُحمّدية) اكتظت بآلاف المجلدات، وملايين المؤلفات عن (الهادي البشيرﷺ) ؟!. فهو قدوة العابدين، وسيّد المجاهدين.. وإمام المرسلين. وهو فتى الفتيان.. وفارس الفرسان.. وبطل الأبطال. وهو الصادق الأمين.. والبشير النذير.. وحُجّة الله على العالمين. إنه سيّد ولد آدم.. وصاحب لواء الحمد.. وصاحب الشَّفاعة الكبرى. وهو أجود الناس وأزهدهم.. وأوفى الناس وأصدقهم. وهو أشرف الخلق وأجملهم.. وأعظم الأنبياء وخاتمهم.

فَفِيمَ العجب.. إذا تدلَّه الكُتّاب والشُّعراء بسيرتهﷺ، وتغنّوا بشمائله ؟

فالذين عاصروه فعلوا أجلّ من ذلك وأعظم؛ ففدوه بأموالهم وأنفسهم.. وخرّوا يُقبّلون أقدامه وما تحت أقدامه ! وحملوا لواء دعوته؛ ففتحوا بها البلدان والأقطار، وتخطّوا بها اليابس والماء ! بلْ استُشهِدوا في سبيل دعوته ورسالته !.

فلا عجب أن تترى قصائد المادحين عبر العصور، بمختلف اللغات؛ تترنم بسيّد الكونيْن، والثقليْن، والفريقيْن من عُربٍ ومن عَجَمٍ !. ومازال الشّعراء يُرصّعون قصائدهم، ويُزيّنون دواوينهم بمدح (إمام الأنبياء) موقنين ـ في ذات الوقت ـ أنهم ما بلغوا مقصودهم، وما حقّقوا غايتهم التي تهفو إليها أفئدتهم !.

ولعلّ ما جادتْ به القرائح من قلائد المطولات والمعلّقات؛ كان سبباً وراء خلود هؤلاء المبدعين وشهرتهم الواسعة في سائر الأزمنة والأمكنة.. فالمادحون هم الذين نالهم الشرف الرفيع بمدحهم لأشرف الخلق، وداعي الحق (مُحمّدﷺ) !.

أوْ على حد قول الشّاعر الإسلامي "سيّد سليم" :

فمدحهُ شرفٌ عالٍ لمادحهِ وغيره كمْ سَمَوا بالمدحِ والنّغَمِ

أوْ كما قال القائل :

أنا ما مدحتُ مُحمّداً بقصائدي لكنْ مدحتُ قصائدي بمحمّدِ

وهكذا يظل (رسول الإنسانية الأعظم) فوق مدح المادحين، وثناء المتدلّهين !

كما يقول الشّاعر النصراني "جاك صبري شماس" :

مهما مدحتك يا (رسولُ) فإنَّكم فوق المديحِ وفوق كلّ بيانِ

محمد عبد الشّافي القُوصي

القاهرة : 27 ربيع الخير 1432هـ

المدائح النبويّة

تعدّ المدائح النبويّة فناً أدبياً مستقلاً بذاته، حتى صار أجلّ الأغراض الشعرية، فتسابق نحوه الشعراء في مختلف العصور، ونظموا فيه أروع ما جادتْ به قرائحهم. وقد قيل : مَنْ لمْ يُبدِع في المدائح النبوية فقد فاته شرف عظيم !.

ونظراً لكثرة المدائح ووفرتها؛ فإنه لا يمكن حصرها بحال من الأحوال؛ لتعدّد بيئاتها، وتنوّع لغاتها، واختلاف مذاهبها.

لكن، هناك عدداً من "المدائح النبوية" نالت حظاً واسعاً من الشهرة، ونصيباً وافراً من القبول، ربما لاشتمالها على كثير من أحداث السيرة النبوية ووقائعها، أو لشهرة أصحابها ومكانتهم، أو لارتباطها بظروف ومواقف بعينها، أو لصدقها الفني والعاطفي، وجمالياتها البلاغية الفائقة.. مما جعل الناس تتناقلها جيلاً بعد جيل، وترددها الألسنة صباح مساء.

تاج المدائح النبوية

لقد كان لقصيدة "البُردة" لكعب بن زهير، أثرها في كثير من التجارب في الشعر العربي قديماً وحديثاً، حتى أطلق عليها النقاد "تاج المدائح النبوية" بالرغم من أن الشاعر لم يمدح الرسول فيها إلا في أبيات معدودة !.

وهناك عدد هائل من الشّعراء الذين عارضوا قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير، آخرهم الدكتور صابر عبد الدايم، والدكتور عبد الغفار هلال. والملاحظ أن الكثير من هذه المعارضات تتفق مع قصيدة كعب في الوزن والقافية، والبعض قد يختلف معها في الغرض، فالمعارضة إذن ليست كاملة ولكن جزئية.

ولبُردة كعب أكثر من أربعين شرحاً، كما قام كثير من الشّعراء بعمل تخميسات وتشطيرات عديدة لها... ونظراً لأهمية بُردة كعب الفنية والمعنوية، فإنها خلّفت آثاراً علمية وجمالية فيما بعدها من القصائد التي عارضتها، لأنها أُلقيتْ بين يدي الرسول الأكرم، وكانت تجربة صادقة خاضها كعب وهو معلّق بين أمل الحياة وهوّة الموت،

وجاء عفو الرسول تتويجاً لعزيمته الصادقة وتوبته النصوح. وقد فسّر البعض إعطاء الرسول بُردته لكعب على أنه إسباغ حمايةٍ للشَّاعر حتى لا يتعرض له أحد.

وفي هذا يقول الدكتور زكي مبارك في كتاب "المدائح النبوية" : «توارث المسلمون احترام قصيدة كعب حتى قال أبو جعفر الألبيري : حدثني بعض أشياخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب، فلما سُئِلَ عن ذلك، قال : رأيتُ رسول الله فقلتُ يا رسول الله : قصيدة كعب أنشدها بين يديك؟ فقال نعم، وأنا أُحبها وأحبّ من أحبها. قال : فعاهدتُ اللهَ أنني لا أخلو من قراءتها كل يوم. قال أبو جعفر : ولم يزل الشعراء منذ ذلك الوقت إلى الآن ينسجون على منوالها، ويقتدون بأقوالها تبرّكاً بمن أُنشِدت بين يديه، ونُسِبَ مدحها إليه».

عروس المدائح النبوية

إذا كانت بُردة كعب سُمّيت "تاج المدائح" فإن بُردة البوصيري هي "عروس المدائح" ! مع أن هناك فروقاً واضحة بين البُردتين : "بُردة كعب" و"بُردة البوصيري"، منها : أن المسافة الزمنية بينهما تزيد عن ستة قرون، وكذلك طبيعة الجو النفسي، وعوامل البيئة التي ألقتْ بظلالها على مفردات وتراكيب القاموس الشعري بين البُردتين، وتباين الظروف التي دعت كلاً منهما لإبداع قصيدته، واختلاف القافية وعدد الأبيات بين القصيدتين.

وقد نالت "بُردة البوصيري" شهرة واسعة لم تنلها سواها من المدائح، حتى أصبح الناس يتبركون بها ويستشفون، ويُنشدونها في مختلف المناسبات. وقد تصدّى لشرحها كبار علماء الإسلام والنقاد والأدباء في سائر العصور. ويُحْكَىَ أن البُوصيري لما كتبها رأى الرسولﷺ في المنام، فطرح عليه بُردته، ولهذا سُمّيت بالبُردة. والتي مطلعها :

أمِنْ تذَكّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ — مزجْتَ دمعاً جرى من مُقلةٍ بدمِ

واختتمها بقوله :

وائْذَنْ لِسُحْبِ صلاةٍ منك دائمةٍ — على النبيِّ بِمُنْهَلٍّ ومُنْسَجِمِ

فحول المدائح النبوية

غالبية الشّعراء الذين كتبوا في المدائح عارضوا بُردة البُوصيري، وعلى رأسهم : "محمود سامي البارودي" في قصيدته "كشف الغُمّة في مدح سيّد الأُمّة" التي نظمها

وهو أسير في المنفى، إثر رؤيا ميمونة لرسول الله، أهداهُ فيها عصاه، وقد دعا اللهَ في مقدمتها قائلاً : «أرجو أن تكون لي ذريعة أتوسّل بها يوم المعاد، وسُلّماً إلى النجاة من هول المحشر».

وقد نحا البارودي في بُردته إلى القصّ في سرد الأحداث لاستلهام السيرة النبوية، فكل مجموعة من شعره جاءت أشبه بقصة ذات حدث يتطور إلى حل، وربطها بشخصية أو شخصيات ثانوية في القصة.. وكأنّ الشاعر أراد بعمله هذا إيجاد شعر غنائي بطولي مدحاً لنبيّ الإسلام وسيرته العطرة.. فعبّر تعبيراً صادقاً عن خلجات نفسه وإيمانه بمنزلة إمام الأنبياء والمرسلين.. واستهلها بقوله :

يا رائد البرقِ يمّم (دارة العلَمِ) واحْدُ الغمامَ إلى حيٍّ بـ (ذي سَلَمِ)

واختتمها بقوله :

وصلِّ ربِّ على المختارِ ما طلعتْ شمسُ النهارِ ولاحتْ أنجُمُ الظُّلَمِ

زهرة المدائح النبوية

لكن تظل أشهر معارضة لبُردة البوصيري هي قصيدة أمير الشّعراء أحمد شوقي "نهج البُردة" التي حظيت بمعارضات شعرية كثيرة، فلم يسلك فيها شوقي مسلك البارودي في بُردته، وإنما عمد إلى استلهام الجوانب الإنسانية والعاطفية في حياة الرسول كالأُبوة والعطف والحنان والعفو والرحمة وما إلى ذلك. وقد عاش شوقي عُمره مستبشراً ومغتبطاً بهذه القصيدة بالذات؛ لدرجة أنه أوصى بكتابة بعض أبياتها على قبره ! ادقاً من خلجات نفسه هوى المدائح وقد استهلها بقوله :

ريمٌ على القاعِ بين البانِ والعَلَمِ أحلّ سفكَ دمي في الأشهرِ الحُرُمِ

واختتمها بقوله :

ياربِّ أحسنت بَدْءَ المسلمينَ بهِ فتمّم الفضلَ وامنحْ حُسْنَ مُخْتَتَمِ

شجرة المدائح النبوية

صارت المدائح فناً شعرياً قائماً بذاته، وقلّما وُجِدَ شاعر تجنب هوى المدائح، بلْ هناك من أخلص لهذا الفن أيما إخلاص حتى صار من أعلامه، بدءاً من شعراء الرسول الأكرم (حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وغيرهم) ثم توالت شجرة المدائح المباركة تمتد أغصانها وينتشر أريجها عبر العصور، فرأينا منهم : الكُميْت

الأسدي، والفرزدق، ودِعْبل الخُزاعي، والإمام أبا حنيفة النعمان، والإمام الشافعي، وأبا فِراس الحمداني، والشريف الرضي، وابن حجر الهيثمي، وابن الفارض، وجلال الدين السيوطي، وعبد الرحيم البرعي، والشهاب القيرواني، وسيدي أحمد الدردير، وسيدي محمد البكري، وعبد الرحمن الصفوري، والإمام يوسف النبهاني، والشيخ عبد الله الشبراوي، وعبد الرحمن الأجهوري، وسيدي أحمد الحلواني، والشيخ النابلسي، وفيلسوف الإسلام محمد إقبال، ومحمد عبد المطلب، وأحمد مُحرم، والشيخ علي عقل، والشيخ صالح الجعفري، والإمام محمد ماضي أبو العزائم، والصاوي شعلان، والشيخ عبد الرحمن الصومالي، والحاج أحمد أبو الحسن، والشيخ عبد الفتاح شلبي، وخالد الجرنوسي، ومحمد التهامي، والدكتور أحمد عُمر هاشم، والشَّاعِر سَيِّد سليم، وغيرهم.

المعارضات الشّعرية

(المعارضات الشّعرية) هي أحد الفنون الأدبية في الأدب العربي، وهي نوع من المباريات الشّعرية التي تجري بين الشعراء، وهي تختلف عن التقليد؛ فهي نوع من إثبات الذات والقدرة على الإبداع في ظل قيود معينة، وتبدأ بأن ينظم شاعر ما قصيدة، فيأتي شاعر آخر، إمّا للإبداع داخل هذا القالب لأنه أعجبه، وإمّا لنقض معاني هذه القصيدة وأفكارها؛ لأنه يتبنّى وجهة نظر أخرى مضادة، لكنه إمعاناً في التحدّي يلزم نفسه أن يبدع في نفس القالب الشعري الذي التزمه الشاعر الأول، فيلتزم نفس الوزن والبحر والقافية. وكثيراً ما نجد في (المعارضات الشّعرية) تأثراً بالمفردات والمعاني والصور الفنيّة في القصيدة الأولى، وهذه الظاهرة لها دوافع مختلفة، فربما كانت من باب الإعجاب والرغبة في اقتفاء النص والسير على نهجه، والإفادة من شهرة القصيدة القديمة، وربما رغبة من الشاعر في أن يلفت الأنظار إلى قصيدته أو حتى يتجاوز النصّ الأصلي ويفوقه إبداعاً وإجادة. وقد حفل الشّعر العربي بكثير من المعارضات قديماً وحديثاً.. ولو قصرنا اهتمامنا على العصر الحديث سنرى معارضات ذائعة الصيت لأعلام الشعر العربي الحديث، أمثال : محمود سامي البارودي. كما يُعدّ "أحمد شوقي" أشهر من نظم في المعارضات في العصر الحديث، فقد عارض "سِينيّة" البحتري، و"نُونيّة" ابن زيدون، وقصيدة المتنبي في رثاء جدته، وغزليّة الحصري القيرواني، وبُردة البوصيري.

ولم تقتصر المعارضات على الشعر فقط، فقد تعدته إلى النثر، فشملت الرسائل والمقامات، كتلك التي ظهرت بين الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني في مجال الرسائل، كما عارض ابن شرف الأندلسي بديع الزمان الهمذاني في مقاماته، فعمل مقامة في ذكر الشّعر والشّعراء.

لذا يعدّ هذا الفن إحياء للفن العربي ولتراث الشّعراء والأدباء السابقين في كل زمان ومكان، حيث تنشط فيه الحركة الأدبية الشعرية ويربط ماضي الشعر بحاضره.

وقد انتقل هذا الفن (المعارضات) إلى الآداب الأخرى، خاصة الإنجليزية والفرنسية. ويقابل كلمة "المعارضة" باللغة الفرنسية لفظة "Pastiche" وهم يعرفونها

في معاجمهم كالتالي : imitation ou évocation du style de la maniére d'un écrivain, d'un artiste, d'une école
أي التقليد أو النسج على منوال سابق أو استعادة لأسلوب أو طريقة كاتب أو فنان أو مدرسة، ويطلقون كلمة "Pasticheur" على الاسم الفاعل من الاسم المذكر "Un pastiche" أي على الشخص الذي يقوم بعملية المحاكاة أو التقليد في هذا المجال، ويقولون : Il s'amuse à pasticher Hugo أيْ فلان يتسلّى بمحاكاة أسلوب أوْ طريقة فكتور هيجو.

أول معارضة لشاعر نصراني

من بين المعارضات الشعرية لقصيدة شوقي ″نهج البُردة″ تلك التي جادتْ بها قريحة الشاعر النصراني السوري ″ميخائيل خير الله ويردي″ بعنوان ″أنوار هادي الورَى″ وعدد أبياتها 124 بيتاً من البحر البسيط. ومن أسف؛ فإنّ هذه القصيدة، بالرغم من جمالياتها الفائقة، وغرضها الجليل؛ إلا أنها لم تنلْ حظّها اللائق بها من الشهرة والذيوع بين دارسي المدائح النبوية وشداة الأدب !

وبذلك يعدّ الشّاعر السوري ″ميخائيل ويردي″ أول نصراني ينظم قصيدةً في ″نهج البُردة″ على الإطلاق ! وقد فتح الباب على مصاريعه أمام شعراء نصارى آخرين، ليحذوا حذوه، ويسلكوا مسلكه، ويسيروا على دربه وخطاه !

ولِمَ لا ؟ ألمْ تفتح قصيدة حافظ إبراهيم (العُمَرية) الباب واسعاً أمام الشعراء لينظموا على منوالها في مدح الخلفاء الراشدين وأصحاب النبيّ الكِرام ؟

فقد أبدع ″عبد الحليم المصري″ (البكْرية) ونظم ″عثمان جلال″ (العثمانية) وأبدع ″محمد عبد المطلب″ (العلوية) وأبدع ″عمر أبو ريشة″ (الخالديّة) وكتب (أحمد محرم″ (الإلياذة الإسلامية) وغيرهم.

بســتان المُحـمّديات

أطلـق الـكُـتّـاب والأُدبـاء علـى روائـع المؤلفـات التـي تنـاولت شخصيـة (خـاتم الأنبياءﷺ) سواء كانت نثراً أَوْ شعراً مصطلح "المُحمّديات" ولجمالها وجلالها أسموها (المكتبة المُحمّدية) !.

ويُعدّ الدكتور محمد حسين هيكل بكتابه "حياة مُحمّد" أبرز من فتح شهيّة الكُتّاب والمفكرين، ليؤلّفوا مئات الكتب ودواوين الشِّعر في ظلال "بستان المُحمّديات".

ومن أهم الكتب التي احتوتها (المكتبة المُحمّدية) ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ : "عبقرية مُحمّد" للعقاد، و"على هامش السيرة" لطه حسين، و"إنسانية الرسول الكريم" لمصطفى صادق الرافعي، و"فجر الإسلام" لأحمد أمين، و"الوحي المُحمّدي" للشيخ رشيد رضا، و"بطل الأبطال" لعبد الرحمن عزام، و"مُحمّد الرسول الأعظم" للشيخ محمود شلتوت، و"الرسول في القرآن" لمحمود بن الشريف، و"أسماء النبيّ" لعبد الحميد بن باديس، و"موكب النور" لجمال الدين الرمادي، و"الخُلُق العظيم" للشيخ محمد سليمان سليمان، و"إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وآله الطاهرين" لمحمد بن علي الصبان، و"محمد الثائر الأعظم" لفتحي رضوان، و"الرسولﷺ" لسعيد حوّى، و"الوحي إلى الرسول مُحمّد" للشيخ عبد اللطيف السبكي، و"لمحات من حياة الرسول" للدكتور عبد الحليم محمود، و"مُحمّدﷺ" لتوفيق الحكيم، و"مُحمّد رسول الحرية" لعبد الرحمن الشرقاوي، و"النبي مُحمّد" لعبد الكريم الخطيب، و"مُحمّد القدوة العظمي" للدكتور عبد الحليم حفني، و"مُحمّد رسول الله" لمحمد صبيح، و"مُحمّد عند علماء الغرب" لخليل ياسين، و"معجزات الرسول" للشيخ محمد متولي الشعراوي، و"سُنّة الرسول" لحافظ التيجاني، و"إنسانيات مُحمّد" لخالد محمد خالد، و"مع المصطفى" لبنت الشاطئ، و"فِقْه السيرة" للشيخ محمد الغزالي، و"مُحمّد محرر العبيد" لمحمد شوكت التوني، و"العبقرية العسكرية للرسول" لمحمد فرج، و"مُحمّد المثل الكامل" لأحمد جاد المولى، و"من دروس الهجرة" للدكتور سعد ظلام، و"قبس من سيرة الرسول" للدكتور عبد الله شحاتة، و"مُحمّدﷺ" للدكتور مصطفى محمود، و"الرسول في المدينة" لعلي حسن الخربوطلي، و"يا رسول الله" للدكتور إبراهيم أبو الخشب، و"الحب عند الرسول الكريم" لعبد المنعم الجداوي، و"نبيّ الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن" للمستشار عزت

الطهطاوي، و"سيرة نبيّ الهدى" لعبد السلام هاشم، و"مشاهدات من حياة الرسول" لمأمون غريب، و"من أحوال المصطفى" لمحمد جلال كشك، و"الرحيق المختوم" لصفيّ الدين المباركفوري، و"نبيّ البر" لإبراهيم الأبياري، و"الرحمة المهداة" لمحمد بن حسين بن علي، و"فقه الصلوات والمدائح النبوية" للشيخ محمد زكي إبراهيم، و"شوق المُحبّين في حضرة سيد المرسلين" لنبيلة الجواهرجي، و"مع المصطفى في هديه الحكيم" للدكتور محمد أحمد الشريف، و"الشمائل المُحمّدية" للشيخ الباجوري، و"خاتم المرسلين حياة ورسالة" للدكتور يوسف عبد الهادي الشال، و"سيرة الرسول" للدكتور محمد الطيّب النجار، و"صاحب الرسالة العصماء" للشيخ عبد الحميد كشك، و"نظرات في السُّنّة" للدكتور محمد عبد المنعم القيعي، و"ملحمة السيرة النبوية" للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، و"لسان الصدق" للشيخ علي البحراني، و"هذا الحبيب يا مُحِب" لأبي بكر الجزائري، و"خاتم الأنبياء والمرسلين" للدكتور زغلول النجار، و"دفاع عن مُحمّد ضد منتقديه" للدكتور عبد الرحمن بدوي، و"سيرة الرسول في تصورات الغربيين" للدكتور محمود حمدي زقزوق، و"نبيّ أرض الجنوب" للعميد جمال الدين شرقاوي، و"من الأدب النبويّ" للشيخ إبراهيم الجبالي، و"مُحمّد أعظم البشر" للدكتور حمزة النشرتي، و"أمير الأنبياء" لأحمد بهجت، و"شخصية الرسول في ضوء المقاييس الإنسانية" للدكتور عبد الحليم عويس، و"النور الخالد" لفتح الله كولن، و"محبة الكائنات للنبيّ" للدكتور عاطف المليجي، و"النبيّ الخاتم" للدكتور عبد الغفار هلال، و"البيان المُحمّدي" للدكتور مصطفى الشكعة، و"نور الله" لنجيب الكيلاني، و"الرسول مُعلّماً ومُربياً" لعبد التواب يوسف، و"مُحمّد في الأدب المعاصر" لفاروق خورشيد، و"شعراء حول الرسول" للدكتور عبده بدوي، و"مُحمّد في الأدب العربي الحديث" لحلمي القاعود، و"رسول الإنسانية في الأدب العربي الحديث" للدكتور محمد حامد الحضيري، و"مدائح الفحول للآل والرسول" لفارس مرسي محفوظ، و"المختار من مدائح المختار" للدكتور محمد داود، و"تاج المدائح النبوية" للدكتور صابر عبد الدايم، و"مُحمّد مُشْتَهَى الأُمم" Desire of nation's Muhammad لمحمد عبد الشافي القُوصي، إلى غير ذلك من روائع (المُحمّديات) التي ألّفها صفوة العلماء والمفكرين والأدباء والكُتّاب المسلمين في القرن العشرين.

لكن، تبقى كلمة لابد من تسجيلها في هذا المقام؛ إنه لا يحق لأيّ كاتب أوْ أديب أوْ شاعر أن يغامر بالكتابة عن (النبيّ الخاتم) من باب شهوة الكتابة، أوْ التسلية، أوْ حب الاستعراض ! لأنّ الأمر جد خطير، فما لمْ يمسك الكاتب بناصية البيان، ويثق في أدواته النقدية وعدته العلمية؛ فلا يلِج هذا الميدان بحال من الأحوال، مهما حرّضته نفسه الأمّارة أوْ اللوّامة أوْ المطمئنة !.

(المُحمّديّات) عند الفلاسفة والمستشرقين

لقد شارك العلماء والمفكرون والأدباء والشّعراء الغربيون (غير المسلمين) في الكتابة عن (إمام الأنبياء والمرسلينﷺ) وقدّموا عدداً كبيراً جداً من المؤلفات القيّمة والإبداعات الرائعة التي تربو ـ كماً وكيفاً ـ على ما قدّمه الكُتّاب العرب والمسلمون في هذا الصدد !.

ونظراً لكثرة هذه الموسوعات والمؤلفات التي أنجزها كبار المستشرقين والفلاسفة والأدباء الغربيين؛ فإننا سنكتفي بالإشارة إلى بعضها فقط !.

"مُحمّد في مكة، ومُحمّد في المدينة، ومُحمّد نبيّ ورجل دولة" للقِس البروتستانتي مونتجمري وات Montgomery watt، و"الله في السماء" للقِس الكاثوليكي لوزان Lausanne، و"الإسلام رمز الأمل" لعالم اللاهوت الكاثوليكي السويسري المعاصر البروفيسور هانز كونج Hans kung، و"سيرة النبيّ مُحمّد، ومُحمّد نبيّ هذا العصر" Muhammad A Prophet for Our Time للراهبة الإنجيلية كارين أرمسترونج Karen Armstrong، و"حياة مُحمّد" للفيلسوف والمؤرخ الفرنسي هنري بولا نفلييه H.Boulainvillier، و"الديانة المُحمّدية" للمستشرق الهولندي هادريان ريلاند H.Reland، و"مُحمّد حياته وتعاليمه" للمفكر الألماني أرنست ماير E.Meier، و"نشيد مُحمّد" للشاعر الألماني جوته Goethe، و"النبي مُحمّد" للفيلسوف والشاعر الفرنسي ألفونس لا مارتين Lamartinn، و"مُحمّد والقرآن" للمستشرق إدوارد مونتيه E.Montet، و"حياة النبيّ مُحمّد" للمستشرق الاسكتلندي السير وليم موير W.Muir، و"حِكَم النبيّ مُحمّد" للروائي الروسي ليو تولستوي L.Tolstoi، و"الشخصية الخارقة" للمؤرخ الأوروبي جيمس ميتشنر James Mitshnr، و"حياة مُحمّد" للمستشرق الألماني جوستاف فايل Veil، و"الأبطال" للمؤرخ الإنجليزي توماس كارلايل Carlyle Th.، و"سيرة مُحمّد" للمستشرق الدانماركي فرانتس بول Buhl، و"حياة مُحمّد" للمستشرق الألماني هوبرت جريميه H.Grimme و"الخالدون مائة أعظمهم مُحمّد" للعالم الأمريكي مايكل هارت M.Hart، و"حياة مُحمّد" للمستشرق الألماني تيودور نولدكه Noldeke، و"مُحمّد ونهضة الإسلام" للمستشرق اليهودي الإنجليزي مارجليوث Margoliouth، و"العقيدة والشريعة في رسالة مُحمّد" للمستشرق اليهودي المجري جولد زيهر Ignaz Joldziher، و"رسول الدنيا" للفيلسوف والباحث رينيه غينيو R. Jinyu، و"الإسلام قوة الغد العالمية" للمستشرق الألماني باول شمتز Pawell Shimtes، و"الرسول" للورد هدلي Lord Hedly،

و"مُحمّد الرسول" للأديب والسياسي الأيرلندي جورج برناردشو B.Show، و"حياة مُحمّد" للمستشرق الألماني تيودور نولدكه Noldake، و"مُحمّد وانتهاء العالم في العقيدة الإسلام" للمستشرق الفرنسي باول كازانوفا Paul Casanova، و"النبيّ مُحمّد" للمستشرق والعالم الألماني المعاصر رودي بارت Rudi Paret، و"أعظم عظماء التاريخ" للمؤرخ الشهير ول ديورانت W.Diurant ، و"شمس الله تطلع على الغرب"، و"العقيدة الإسلامية والمعرفة" للمستشرقة الألمانية سجريد هونكة Sigrid Hunke، و"مُحمّد رسول الله" للمستشرقة الألمانية أنا ماري شمل Annemari Schimmel، وغير ذلك من المُحمّديات التي أنجزها علماء الغرب وعباقرته المنصِفين في العصر الحديث.

جدير بالذكر؛ أن مؤلفات الغربيين في هذا الصدد بالذات؛ خلت من التكرار والثرثرة والحشو، بلْ جاءت عميقة غاية العمق، وجميعها ركّزت على عظمة التشريع الإسلامي ومرونته، وأسبقيته على سائر الدساتير التي عرفها العالم؛ في النظم القانونية والإدارية والعسكرية والاجتماعية.

ولعلّ علماء القرن العشرين وفلاسفته كانوا أكثر موضوعية ممن سبقوهم في العصور الوسطى؛ فلم تعد للكنيسة هناك أيّ سُلْطَة على كاتب أوْ مفكّر، خاصة بعدما نادت (اللوثرية Lutheranism) بـ «شنق آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس» بلْ إنّ الكنائس كلها ـ الآن ـ معروضة للبيع، بعدما اصطدمت بالعقل، وحاربت العلم، وحكمت على العلماء والمفكرين بالشنق والحرق !

والملاحظ ـ أيضاً ـ في كتابات الغربيين، أنهم كثيراً ما يركّزون على أزماتهم الاجتماعية والنفسية، ومشاكل الحضارة الغربية، لذلك لجأوا إلى سيرة (نَّبيِّ الإسلام) للبحث عن حلول لمعاناتهم وإنقاذ مجتمعاتهم من الضياع والانهيار. وبالفعل فقد وجدوا أن (الإسلام) وحده هو القادر على حل معضلات حضارتهم المادية المتآكلة، واكتشفوا أن الخروج من مشاكلهم المستعصية يكمن في قوانين الإسلام وشريعته العالمية، وأيقنوا أن سيرة (مُحمّد) وأقواله وأفعاله هي الملاذ الآمِن، وشاطئ النجاة، ومرفأ السلامة.. فهرول فريق منهم نحو عدالة الإسلام، واعتنقه بكامل إرادته، ونافح عنه بقوة، أمثال : المفكر اليهودي النمساوي محمد أسد الذي كان اسمه Leopold Veiss، وروجيه جارودي Roger Garaudy، ومراد هوفمان Murad Hofmann، وغيرهم. وهناك آخرون لم يؤمنوا بعد؛ لكنهم اعترفوا بحقيقة الإسلام الكبرى في هذا الوجود !

شهادات النّصارى العرب

لم يتوقف سيل الكتابة والدراسة والبحث في سيرة نبيّ الإسلامﷺ عند حدود الكُتّاب والمؤرخين المسلمين فحسب، بلْ تخطّى إلى مختلف الديانات والمذاهب والجنسيات الأخرى، كما أشرنا آنفاً إلى مؤلفات فلاسفة الغرب وعباقرته.

أيضاً، تسابق المفكرون والمؤرخون والكُتّاب النصارى العرب، فقدّموا إلى "بستان المُحمّديات" خلاصة ما جادت به قرائحهم؛ لأنهم رأوا في النبيّ الخاتمﷺ المثل الأعلى في كل جانب من جوانب الحياة، فاجتهدوا في دراسة سيرته، وتحليل مواقفه، وتفسير كلامه، بل جميع سكناته وإشاراته على النحو الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً !

نعم.. إنّ هناك عدداً من الكُتّاب والمؤرخين والباحثين النصارى ألّفوا موسوعات ضخمة، وخصّصوا كتباً فريدة تتناول رسالة نبيّ الإسلامﷺ وتتحدث عن سياسته، وغزواته، وصفاته وأخلاقه، وتأثيره في الحياة الإنسانية عامة.. ومن بين هؤلاء المفكرين والمؤرخين النصارى الفضلاء : لبيب الرياشي صاحب كتاب "نفسية الرسول العربي" وخليل إسكندر القبرصي مؤلف كتاب "دعوة نصارى العرب للإسلام" وخليل جمعة الطوال صاحب كتاب "تحت راية الإسلام"، و"مُحمّد في كتاب اليهود والنصارى" للأب عبد الأحد الآشوري، ومجدي مرجان مؤلف كتاب "مُحمّد نبي الحب"، وإدوار غالي الدهبي، كما كَتَبَ اللواء الدكتور نبيل لوقا بباوي حوالي عشرة كتب حول شخصية الرسول الأكرم، منها : "مُحمّد من مولده إلى وفاته"، و"دفاعاً عن زوجات الرسول"، و"غزوات الرسول"، و"مُحمّد.. الحقيقة والافتراء في سيرته" و"عبقرية مُحمّد"، و... إلخ. والملاحظ أن هؤلاء الكُتّاب لم يعتنقوا الإسلام، وإنما ظلّوا على نصرانيتهم، وهو ما يُعطي أهمية لما يقولونه حول رسول الإسلامﷺ إذْ إنه إنصاف جاء ممن لا يؤمنون به، ويُعطي في الوقت نفسه صورة لذلك التأثير الهائل الذي تحدثه شخصية خاتم الأنبياء في سائر العصور ومختلف الأقطار.

لقد تناول هؤلاء الكُتّاب سيرته من منطلق الانبهار بشخصية نبيّ عظيم أثّر في قومه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والجهالة والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية، ووحّدهم بعد تفرّق تحت راية الإسلام، وصنع منهم أُمة ذات كيان وصاحبة حضارة

عريقة، أثّرت في غيرها من أُمم الأرض. فضلاً عن ذلك فإن النظرة التي نظروا من خلالها إلى شخصية الرسولﷺ تعدّ ذات قيمة علمية في التناول، تضاف إلى ما كتبه الكُتّاب والمؤرخون المسلمون الذين قدموا لنا سيرة النبيّ العظيمﷺ وفقاً لمنهج علمي وتناول موضوعي جاد. كذلك فإن هؤلاء الكُتّاب يعبّرون عن نوع من الشجاعة الأدبية والجرأة المحمودة، بدخولهم إلى مجال الكتابة عن الإسلام ونبيّهﷺ. لقد عبّروا عن سموّ سلوكهم، ونُبل غايتهم وحبّهم للحق، وتجرّدهم من التعصب.. وسنكتفي في هذا المقام بالحديث عن نفر من هؤلاء المفكرين والمؤرخين النصارى، لمعرفة منهجهم في التحليل، وما توصلوا إليه من خلال البحث والدراسة والتفسير !

فهذا هو المؤرخ اللبناني فيليب حتى (1886-1978) أستاذ الحضارة بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، والمتخصص في تاريخ العرب وحضارتهم، يقول في كتابه "تاريخ العرب" : «تركت أعمال مُحمّد اليومية وسلوكه في الأمور الخطيرة والصغيرة أبعد الأثر في النفوس؛ بحيث أصبحت قدوة يقتدي بها الملايين إلى يومنا الحاضر، ولم يحدث أن اعتُبِر شخص واحد عند أي طائفة من الجنس البشري المثل الكامل للإنسان فقُلّدتْ أفعاله بمنتهى الدقة كما حدث لمُحمّدﷺ».

وقد تميز "فيليب حتى" بأنه كان مؤرخاً غزير الإنتاج، وأفرد للتاريخ العربي العام كتابيه : "تاريخ العرب"، و"صانعو التاريخ العربي". كما ألّف أهم كتابين عن حضارة الإسلام، هما "الإسلام في نظر الغرب"، و"الإسلام منهج حياة".

ففي كتابه "الإسلام منهج حياة" الصادر عن دار الفكر المعاصر بدمشق يقول : «إن اللغة العربية هي لغة القرآن التي كانت الأساس الذي قامت عليه أمة جديدة أُخرجت للناس، أُمة جاءت بها بعثة مُحمّدﷺ من قبائل متنافرة متنازعة لم يقدّر لها من قبل أن تجتمع على رأي واحد. وهكذا استطاع رسول الإسلامﷺ أن يضيف حداً جديداً رابعاً إلى المأثرة الحضارية ذات الحدود الثلاثة من الدين والدولة والثقافة، ذلك الحد الرابع الجديد كان "إيجاد أُمة ذات لغة فوق اللغات". ويرى «أن إقامة الأُخوة في الإسلام مكان العصبية الجاهلية ـ القائمة على الدم والقرابة ـ للبناء الاجتماعي كان في الحقيقة عملاً جريئًا جديداً قام به النبيّ العربيﷺ».

ويشير إلى أنه «في الكُتّاب المعاصرين لنا نفرٌ يحاولون أن يكتشفوا الأعمال الباهرة التي حققها مُحمّدﷺ أوْ أن يعالجوا حياته الزوجية على أساس من التحليل النفسي، فلا يزيدون على أن يضيفوا إلى أوجه التحامل وإلى الآراء الهوائية أحكاماً من زيف العلم».

ويؤكد أن «صفات مُحمّدﷺ مثبتة في القرآن بدقة بالغة فوق ما نجد في كل مصدر آخر.. إن المعارك التي خاضها والأحكام التي أبرمها والأعمال التي قام بها لا تترك مجالاً للريب في الشخصية القوية والإيمان الوطيد والإخلاص البالغ وغير ذلك من الصفات التي خلقت الرجال القادة في التاريخ. ومع أنه كان في دور من أدوار حياته يتيماً فقيراً، فقد كان في قلبه دائماً سعة لمواساة المحرومين في الحياة».

وبموضوعية شديدة يقول : «إذا نحن نظرنا إلى مُحمّدﷺ من خلال الأعمال التي حققها، فإن مُحمّداً الرجل والمعلّم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحداً من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ. لقد نشر ديناً هو الإسلام، وأسّس دولة هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أُمة هي الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر».

الرسـالة والرسـول

أمّا المفكر والفيلسوف الدكتور "نظمي لوقا" فقد نالت كتبه شهرة واسعة، حيث قدّم للمكتبة كتابه الشهير "مُحمّد الرسالة والرسول"، ثم كتاب "مُحمّد في حياته الخاصة" إلى جانب الموسوعة الإسلامية. فتناول سيرة الرسول بطريقة تحليلية وعميقة غاية العمق.. ووقف يتأمل كل حادثة وكل موقف في حياة الرسول، ويناقشها مقارنة بما يجري في دنيا الناس، فتحدث ـ مثلاً ـ عن دلائل صدق نبوة "مُحمّد" ورسالته التي جاهد في سبيلها، وامتُحِن من أجلها، فصبر، ولم يقبل المساومة أو الإغراءات التي عرضها القوم لزعزعة إيمانه، يقول المؤلف : «بماذا يُقاس الإيمان، إنْ لم يكن مقياسه الثبات عليه في أشد الظروف حلكة، وأدعاها لليأس؟ وإنْ لم يكن مقياسه الصبر في سبيله على المكاره؟ وإنها لمكاره من كل نوع. لعلّ المعنوي منها أقسى من المادي.. لم يساوِم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع رسالته، على كثرة المساومات واشتداد المحن.. فحيثما تعرض الأمر لدعوته وعقيدته فلا محلّ لمجاملة مهما قويت بواعثها. أهذا شأن من يملك من الأمر شيئاً؟ أهذا شأن من لا تسيطر عليه قوة قاهرة أقوى من مراده وهوى نفسه؟ لقد ضُرِب وشُجّ وأُهِين في كل مكان فلم يغْنهُ من ذلك شيء سوى خوفه أن يكون بالله عليه غضب.. فإنْ لم يكن ربه غاضباً عليه فلا يبالي ! وقريش تمنّيه بانقلاب الحال إلى ملك مؤهل وثراء مذلّل فلا يفكر بشيء من ذلك طرفة عين، ويُعرِض عنه بغير مبالاة. فإنْ لم يكن نوراً هو الصدق الصادق فقد ارتكست مقاييس تجعل من صاحب هذه المواقف مساوِماً.. طالب مغنم..».

ويشير المؤلف إلى بشرية الرسول، وأنه لا يفرق عنهم إلا في أمر الوحي السماوي، وليس بمقدوره أن يأتي بالمعجزات والخوارق التي يطلبونها إلا بأمر الله، فيقول : «إن رسول الإسلام هو أول رسول بُعِث إلى الناس وانبرى لدعوتهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للأبصار الخالبة للألباب. فقد أُرِيد للناس أن يشعروا أن رسولهم "مثلهم" حقاً وصدقاً، لا يملك من الخوارق أكثر مما يملكون. وليس له من سلطان عليهم، وإنما الأمر إليهم كي يكون اهتداؤهم نابعاً من قدراتهم البشرية، وعن اقتناعهم الذاتي، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير.. فيكون اهتداؤهم إيماناً ليست فيه شائبة استهواء أو توريط».

وتحدث المؤلف عن تجربة نزول الوحي على النبيّ وما كان من هذا الرسول البشر إزاء هذا الحدث الجلل : «إن هذا الرسول، حينما وقعت له تجربة الوحي أول مرة، وهو يتحنّث في غار حِراء، صائماً قائماً، يقلّب طرفه بين الأرض والسماء. لم يأخذ هذه التجربة مأخذ اليقين، ولم يخرج إلى زوجه خروج الواثق بها، المتلهّف على شرفها. بل ارتعدت فرائصه من الروْع، وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفذّة الخارقة.. ودخل على زوجه، وكأن به رجفة الحُمّى..».

ويشير المؤلف إلى مفهوم النبوة في الإسلام، فالنبيّ بَشَر، ولا يعدو ذلك أبداً، إلا بما يوحيه الله إليه، فلا تأليه على الإطلاق، يقول : «لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية.. فالعبد عبد، والربّ ربّ، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضاً معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، فما أقرب الناس لو تُرِكوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبيّ أنه ليس بشراً كسائر البشر، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء. ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواتراً مكرراً في آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (الكهف : 110). وفي تخيّر كلمة "مثلكم" معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال. بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء في سورة الشورى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ ﴾ (الشورى : 48). وظاهر في هذه الآية تعمّد تنبيه الرسولﷺ نفسه إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التي كُلِّف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها».

وقد نظر "نظمي لوقا" بنظرة موضوعية، إلى الرسول والمكانة التي بلغها من هداية البشر فكتب يقول : «.. رجل فرد هو لسان السماء. فوقه الله لا سواه. ومن تحته

سائر عباد الله من المؤمنين. ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كِبْر. بل يُشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسولﷺ بما أنعم من الهداية على الناس وما تمّ له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتدّ بذلك كله واعتزّ، لما كان عليه جُناح من أحد؛ لأنه إنما يعتدّ بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة. يُطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم : «لا تُطروني كما أطرتْ النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله». ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيماً له، فينهاهم عن ذلك قائلاً : «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضاً».

كما تطرق المؤلف إلى زواج الرسول، ومعاملته لأزواجه وأهل بيته، وكيف كان القدوة في كل شيء، فيقول : «كان مُحمّدﷺ يملك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه. فهي قوة له تحسب في مزاياه، وليست ضعفاً يُعَدّ في نقائصه. لم يكنﷺ معطل النوازع، ولكنها لم تكن نوازع تعصف به؛ لأنه يسخرها في كيانه في المستوى الذي يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل في الصورة الجميلة الجليلة التي لا تهدر من قدره، بل تضاعف من تساميه وعفته وطهره. وبيان ذلك في أمر بنائه بزوجاته التسع رضي الله عنهن... فالإسلام لا يقاوم الحياة، بلْ يقرّ الفطرة البشرية على تقديسها وصيانة ينابيعها من الأكدار، ولا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد».

كما تحدث المؤلف عن أوصاف الرسول وكمالاته الفاضلة الرفيعة التي تتمثل في شجاعته وزهده وكرمه ورحمته وسماحته وعدله وبره وصدقه، وجماع ذلك كله قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : 4). وأشار إلى بعض المشاهد من تواضع الرسول، فقال : «إن لُباب المسألة كلّها أن الرسول كان أكبر من سلطانه الكبير، فعندما يدهش رجل بين يديه ويرتعش، يقول له : هوّن عليك، لستُ بملِك ! إنما أنا ابن امرأةٍ كانت تأكل القديد بمكة.. إن مجد هذه الكلمة وحدها يرجح بفتوح الغزاة كافة وأبّهة القياصرة أجمعين. أنت بأجمعك يا رسول الله في هذه الكلمة، وما أضخمها أيها الصادق الأمين !».

دين الرحمة والسلام

وهذا المؤرخ والمفكر اللبناني "نصري سلهب" ذلك الإداري الرائد، والدبلوماسي اللبق، الذي منحه الله نعمة العقل الراجح والفكر النيّر. والذي وهب حياته لتحقيق

التعايش السلمي بين المسلمين والنصارى، عاش أميراً للبلاغة وأميراً للكرامة طوال حياته. وعمل سفيراً لبلده في الفاتيكان، وله دراسات حصيفة وبالغة العمق فيما يتعلق بعروبة نصارى الشرق. عندما كانت تستشكل عليه الأمور، كان يقول : «تراثكَ يا ابن عبد الله ينبغي أن يحيا، لا في النفوس والقلوب فحسب، بلْ في واقع الحياة، في ما يعاني البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثكَ مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندكَ جواب، كل مشكلة مهما استعصتْ وتعقدتْ، نجد لها في مأثوراتكَ حلاً».

وقبل وفاته بسنوات قلائل ألّف نصري سلهب كتابه "الإسلام كما عرفته دين الرحمة والسلام" الصادر عن "دار النشر للسياسة والتاريخ" ببيروت، لبنان، ط 1، 1997، يبحث في أصول الدين الإسلامي بوصفه دين الرحمة والسلام، ويهدف إلى الإسهام في إلقاء شعاع على هذا الدين الذي ظل قروناً طويلة هدفاً للطعن والافتراء، والحقيقة أنه أُنزل هدى ورحمة للعالمين، فكان مثالاً للتسامح والرفق.

وبعدما صدر هذا الكتاب باللغة العربية، أَذِن مؤلفه للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ الإيسيسكو ـ بنشر ترجمتيه الإنجليزية والفرنسية، وتأتي أهمية الكتاب أنه يصحّح كثيراً من المفاهيم المغلوطة، ويدحض الشبهات والآراء المغرضة التي تروج ضد الإسلام، في نسق عال، وبأسلوب يعتمد الموضوعية والنزاهة أساساً له.

ولـ "نصري سلهب" كتاب آخر على درجة من الأهمية، صدر عام 1970 هو "لقاء المسيحية والإسلام" يقول فيه : «إن الآية التي أستطيب ذكرها هي التي تنبع سماحة إذْ تقول : ﴿ **وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (العنكبوت : 46).

ويتابع : «ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم. إنها لعبارات يجدر بنا جميعاً، مسيحيين ومسلمين، أن نرددها كل يوم، فهي حجر الأساس في بناءٍ نريده أن يتعالى حتى السماء، لأنه البناء الذي فيه نلتقي والذي فيه نلقى الله : فحيث تكون المحبة يكون الله. والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتب المنزلة واحدة، وأن أصلها من عند الله، وهذا الأصل يدعى حيناً "أُم الكتاب" وحيناً آخر "اللوح المحفوظ" أوْ "الإمام المبين"..».

ويؤكد أن «الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة. ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير».

في خُطَى مُحمّدﷺ

أما كتابه "في خُطَى مُحمّدﷺ" الصادر عن دار الكتاب العربي، بيروت 1970 فهو بمثابة شهادة كاتب مسيحي عبقري تضاف إلى شهادات كُتّاب نصارى منصفين، يقول في تقديمه : «إنه كتاب شهادة "مسيحي" على دين مُحمّد، وإسهام في تعريف المسيحيين بحقيقة هذا الدين إنما أردته شهادة مسيحي في دين مُحمّد من لدن الله، من السماء، فأسهم من خلاله في إطلاع إخوة لي مسيحيين على حقيقة هذا الدين، وما يحتوي من ثروات روحية وخُلقية، وعلى ما أدّى للإنسانية عبر العصور من جليل الخدمات».

ونجد الكاتب يناجي الرسول على صفحات كتابه، فيقول : «يا رسول الله يا مُحمّد.. لقد اشتقنا إلى وقفاتِكِ التي كنتَ تقفها بين يدي الله، وكان لا يقع فيها بينك وبينه حجاب.. لقد اشتقنا إلى قرآنكَ الذي من جلس يتلوه جاوز السماء.. أَمَا آنَ لهذه الأُمة أن تعود إلى تعاليمكَ فتسعد وإلى رحابكَ فتهتدي.. أنا المسيحي المؤمن بإنجيلي أقول : إن أُمةً لا تعرف قدركَ يا مُحمّد لهي أُمّة لا قيمة لها بين الأُمم».

ويواصل الكاتب حديثه بعد ذلك، ليردّ على الافتراءات والمطاعن التي يردّدها الغربيون عن الإسلام ونبيه الكريم، فيقول : «في مكة.. أبصر النور طفل لم يمرّ ببال أُمهِ، ساعة ولادته، أنه سيكون أعظم الرجال في العالم، وفي التاريخ كله، بلْ أعظمهم إطلاقاً».

ويقول : «غدا اسم مُحمّدﷺ أشهر الأسماء طُرًّا، وأكثرها تردادا على الشفاه وفي أعماق القلوب. وحسبه شهرةً وتردادا أن ملايين المؤمنين في العالم يؤدون كل يوم أكثر من مرة، شهادة مقرونة باسم الله وباسمه».

ويرى الكاتب أن «من يُمعِن التفكير في سيرة هذا الرجلﷺ يرَ نفسه منساقاً إلى الإقرار بأن ما حققه وقام به يكاد يكون من دنيا غير التي يعرفها البشر».

ثم يقول : «هنا عظمة مُحمّدﷺ لقد استطاع خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، أن يُحدِث ثورة خُلُقية وروحية واجتماعية، لم يستطعها أحد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة».

ويشير إلى أنه «ليس بين الرسل واحد كمُحمّدﷺ عاش رسالته عمقاً وصعداً، بُعْد مدى، ذوب كيان، عصف بيان، عنف إيمان».

وعن الفيض الإلهي الذي أتى به الرسول يقول الكاتب : «لكأني بمُحمّدﷺ آلى على نفسه أن يترك للمؤمنين ثروة روحية وأخلاقية، يُنفقون منها فلا تنضب ولا تشح؛ لأنها بحجم روحه، وهل لأحدٍ أن يتصور أن روح النبيّ تنضب أو تشح؟».

وعن أُميّة الرسول التي هي آية من آياته، يقول : «إنّ مُحمّداًﷺ كان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب، فإذا بهذا الأُميّ يهدي الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية، منذ كانت الإنسانية، ذاك الكتاب الذي أنزله الله على رسوله».

ويستطرد الكاتب في حديثه عن الوحي الذي نطق به الرسول : «ليس في القرآن كله ذِكرٌ لمعجزة أوْ لأعجوبة صنعها النبيّﷺ، فحسبه أن المعجزة الكبرى كانت بوساطته.. حسبه أن الله اختاره من دون البشر لينزل عليهم تلك الثروة التي لم يروِ التاريخ أن ثروة بحجمها جاءت على لسان رجل واحد. حسبه أن يكون قد نثر تلك الثروة بحرفيتها على الناس، فأفادوا منها جميعهم. وستظل مدى الدهر ينبوعاً يرِدُه العِطاش إلى الحقيقة والجِياع إلى ملكوت الله».

ويشير إلى أول ما نزل من الوحي في غار حراء، فيقول : «إن أولى الآيات البيّنات كانت تلك الدعوة الرائعة إلى المعرفة، إلى العِلم عبر القراءة (اقرأ) وقول الله هذا لم يكن لمُحمّدﷺ فحسب، بل لجميع الناس، ليوضّح منذ الخطوة الأولى، بل منذ الكلمة الأولى، أن الإسلام جاء يمحو الجهل، وينشر العلم والمعرفة».

وتحدث المؤلف عن رسائل النبيّ إلى الملوك والقياصرة «ذلك العظيم الذي كان يحاول تغيير التاريخ، ويُعِدّ شعباً لفتح الدنيا من أجل الله.. ذلك الأُميّ اليتيم الفقير الذي خاطب الأباطرة والملوك والأمراء من ندّ إلى ندّ، بلْ كمن له عليهم سلطان.. ذلك الملهم الذي كان همّه أن يعيد الصلة بين الأرض والسماء. ذلك الرجل وجد الوقت الكافي ليلقي على الناس دروساً في آداب المجتمع، وفي أصول المجالسة وكيفية إلقاء السلام !».

وتبلغ الدهشة والإعجاب بالكاتب مبلغها، حينما يتأمل في قدرة الرسول على الجمع بين المهام العظمى سواءً كانت عامة أو خاصة والتي لا يقدر عليها فرد مهما كانت عزيمته، فيقول : «هذا الرجل الذي ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخِضم الهائج، أن يرسي قواعد دولة، وأن يشرّع قوانين، ويسنّ أنظمة، ويجود بالتفاسير والاجتهادات، ولم ينسّ أنه أبٌ وجدٌّ لأولاد وأحفاد فلم يحرمهم عطفه وحنانه. فكان بشخصيّته الفذّة، الغنيّة بالقيم والمعطيات والمؤهّلات، المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كله عالماً قائماً بنفسه».

ففي نظره أنه «لم يكن النبيﷺ رسولاً وحسب، يهدي الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيماً وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أُمّة أُخرِجت للناس. وكان له ما أراد».

ويعدّ المفكر النصراني المصري الدكتور "نبيل لوقا بباوي" من أكثر الكُتّاب الذين تناولوا سيرة "نبيّ الإسلام" في الوقت الحالي، فقد ألّف أكثر من عشرة كتب في هذا الصدد، تناولت مختلف أبعاد السيرة النبوية، ونافح عن صاحب السيرة بقوة، وأعلن رفضه التام لإلصاق التهم الظالمة بالإسلام، خاصة تلك المتعلقة بوصفه بالعنف.. ولا عجب أن يكون هذا الفهم الواسع والدفاع المنطقي من الدكتور بباوي، فقد سبق أن حصل الرجل على ثلاث رسائل دكتوراه في الشريعة الإسلامية !.

ففي كتابه "عبقرية مُحمّد" يقول د. نبيل بباوي : استوقفتني في السيرة النبوية عدة مواقف تؤكد أن "مُحمّداً" كان داعية سلام ومودة ومحبة في كل حياته وأفعاله وهذه هي ثلاثة مواقف فقط أذكرها لتؤكد سماحة الرسول الكريم :

أولها : الأمان الذي أبرمه النبيّ مع يهود المدينة والذي ذكر فيه أن اليهود ـ وهم أصحاب ديانة مخالفة لما جاء به رسول الإسلام ـ متساوون مع المسلمين في المصلحة العامة، وأنهم كذلك لهم عهد ومودة وذمة الله، وأنهم آمنون على حياتهم وأموالهم ويمارسون شعائرهم الدينية في حرية وأمان.. هذا العهد هل فيه أية دعوة للحرب أو الإرهاب؟ إن كل كلمة فيه تدعو إلى السلام رغم قدرته في هذا الوقت على طرد اليهود من المدينة.. ولكن مُحمّداً لم يفعل إلا بعد نقضهم لعهده وخيانتهم وتآمرهم مع الوثنيين ضد رسالته.

والموقف الثاني : ما تدلّ عليه القراءة الموضوعية للرسائل التي أرسلها "مُحمّد"ﷺ للملوك في العالم، فالسمة العامة في جميع الرسائل هي الدعوة الحسنة إلى الدخول في الدين الذي جاء به دون وعيد أو تهديد، ثم هذا التواضع الشديد من النبيّ عند توقيعه للرسائل، فلم يكتب أنه ملِك المسلمين أو عظيم الجزيرة العربية مثلاً، وإنما كان يوقّع على الرسائل بعبارة «مُحمّد عبد الله ورسوله» ويكفي في هذا المجال أن نعرض الرسالة التي أرسلها إلى المقوقس حاكم مصر.. لنرى كمْ كان نبيّ الإسلام داعية سلام وتآلف بين البشر، ونتأكد من كذب ما يدّعيه الغرب على هذه الشخصية العظيمة، فقد كتب يقول : «من مُحمّد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهُدى، أما بعد فإني أدعوكَ بهداية الإسلام، أسلمْ تسلمْ يؤتيك الله أجرك مرتين، فإنْ توليتَ فإنّ عليكَ إثم القبط ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾».

أما ثالث المواقف : التي تدلّ على حب نبيّ الإسلام ودعوته إلى العفو، فهي ما حدث مع من أخطأ في حقه شخصياً، فقد عفا عن كل من "وحشي" مولى مطعم بن جبير والذي قتل عمه حمزة بن عبد المطلب رغم تمكنه منه، ولكن الرجل اعتذر ودخل الإسلام. كما عفا أيضاً عن "هند بنت عتبة" التي لاكتْ كبد عمه حمزة في موقعة أحد. وكذلك موقفه من "كعب بن زهير" الذي كان يهجوه في شِعره وحينما جاءه تائباً معتذراً أنشده قصيدة الاعتذار فلم يكتفِ نبيّ الإسلام بالعفو عنه، وإنما خلع عليه بُردته»!.

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، وسطور من موسوعات لا حصر لها، سجّلها عقلاء المفكرين والمؤرخين النصارى العرب، بدافع الانتماء الفطري، وسلطان الحب والهوى الذي لا يُقاوَم، ولا قدرة لأحدٍ في صدّه أو منازلته !.

وما العجب في ذلك ؟!.

فما من أحدٍ يبغي العُلا ومراتب الحب والكمال، أوْ ينشد الفضيلة ومكارم الأخلاق، إلاّ وله في نبيّ الإسلامﷺ الأُسوة الحسنة، والمثل الأعلى... وقد أفصح عن ذلك الأديب والكاتب اللبناني الشهير "أمين نخلة" فيما كتبه تحت عنوان "هوىً بمُحمّد وتمسكاً بقوميته، وكلفاً بلغته" جاء فيه :

«مُحمّد، نغمة لا كلمة، لفرط ما مسحت على شفاه الخلائق، تأخذ بالسمع قبل الأخذ بالذهن، وليس على بسيط الأرض عربي لا ينتفخ لها صدره، ولا ترج جوانب نفسه، فمن لم تأخذه بالإسلام، أخذته بالعروبة. وفي هوى مُحمّد تتلاقى مِلّتا العرب : مِلّة القرآن، ومِلّة الإنجيل، حتى كأن الإسلام إسلامان؛ واحد بالديانة، وواحد باللغة، أو كأنما العرب مسلمون جميعاً حين يكون الإسلام هوىً بمُحمّد، وتمسكاً بقوميته، وكلفاً بلغته. ومُحمّد لا تستطيع طائفة من العرب أن تنفرد بالتباهي به، فهو فضلاً عن كونه للخلق كلهم حيث يتشبّهون بأكرم الآدميين في حفظ النفس، وحفظ الجار، وحفظ الله، فبالأجدر أن يكون للعرب كلهم حين يتشبهون بأبلغنا في الفصحى، وأنهضنا في الجلى.. لقد جمع مُحمّد إليه بفضل العربية في رسالته والعروبة في شرعته، هذه القلوب العربية من كل ديانة، حتى ليجد المسيحي في دار الغربة تحت مئذنة الجامع وهو ابن المسيحية، ما لا يجده تحت قبة الكنيسة (هناك في باريس).

يا مُحمّد، يميناً بديني، دين ابن مريم، إننا في هذا الحي من العرب (حي لبنان) نتطلع إليك من شبابيك البيعة، فعقولنا في الإنجيل، وقلوبنا في القرآن» !.

مُحمّدﷺ في شِعْر النصارى العرب

لا يزال للشعراء النصارى العرب أثرهم الكبير في تاريخ الأدب، فقصائدهم تعدّ سِجلاً للحوادث التي عاشوها، كما أنها تمثل دستوراً للعلاقات الاجتماعية وغيرها.. خاصة أن المسيحية العربية كانت مسالمة، لا تحدوها مطامح سلطوية أو مطامع سياسية، لذلك لم تعش بصفتها أقلية دينية متقوقعة على النفس ومنغلقة على الذات، بل اندمجت مع المجتمع الإسلامي من حولها، واحتفظت المسيحية العربية بخواص تميزها عن كافة النصارى الآخرين في المجتمعات الأخرى، فكانت أقرب الفئات روحاً وثقافة إلى المسلمين ولها صلات حضارية تفوق ما للفئات النصرانية الأخرى... فهيأت الطريق في قلوب العرب لقبول الدعوة الإسلامية حتى انتصرت على الوثنية.

هذا، وقد حفل العصر الحديث، بعدد وافر من الأدباء والشعراء النصارى العرب، أمثال : خليل مطران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبي ماضي، والشاعر القروي، وجبران، والأخطل الصغير، وجورج صيدح، وجاك صبري شماس، وغيرهم من الذين حملوا على عاتقهم رسالة الأدب الجميل للدفاع عن مقدرات الأُمة الثقافية، فنافحوا عن لغة الضاد، وعن أعلام الأُمة ورموزها ومقدساتها، كما رأينا منهم من تصدّى بالرد على المتطاولين على الإسلام وحضارته، والدفاع عن الرسول الأكرمﷺ.

وها نحن نسوق ألواناً من الشعر العذب الجميل الذي تغنّى به العرب النصارى، مما يؤكد أن عروبة هؤلاء وانتماءهم لسيّد العرب والعجم مُحمّدﷺ كان انتماء مفاخرة ونسب وحنين منقطع النظير !.

فهذا هو ذا الشاعر اللبناني حليم دمّوس (1888-1957) الذي نظم الشعر وهو في العاشرة من عمره، ومن أعماله الإبداعية : "ديوانُ حليم"، ومجموعة شعرية بديعة مصورة بعنوان "المثالثُ والمثاني، ومجموعة شعرية باسم "صدى الجنان" كما نظم ملحمة كبيرة ضمّنها بطولات العرب وآثارهم وفتوحاتهم ومدنيتهم. وله مؤلفات أخرى مثل : "قاموس الأعلام" و"يقظةُ الرّوح"، وغيرها.. وها هو يتوجه بشعره مادحاً الرسول الأُميّﷺ :

أمُحمّدٌ والمجد بعض صفاتهِ | مجّدت في تعليمك الأديانا
بُعِثَ الجهادُ لدن بُعِثت وجُرّدتْ | أسيافُ صحبك تفتحُ البلدانا
ورفعت ذِكْرَ الله في أُميّةٍ | وثنيةٍ ونفحتها الإيمانا
مرحىَ لأُميٍّ يُعلّم سِفْرهُ | نُبغاءَ يعرُب حكمةً وبيانا
إنّي مسيحيٌّ أُحبُّ مُحمّداً | وأراهُ في فلك العُلا عنوانا

وفي قصيدة أخرى طويلة، يقول الشاعر حليم دموس :

تغنّيْ عروسَ الشّعر باسم مُحمّد | وهزي بني الدنيا بسيرة أحمدِ
لعمركَ ما الأديانُ إلا نوافذٌ | ترى الله منها مقلة المتعبّد
فألمحُ في القرآن عيسى بن مريم | وأشهدُ في الإنجيل روح مُحمّد

وبالرغم من أن الدكتور "شبلي شميل" لم يكن من أهل الأدب والشعر، حيث كان باحثاً وطبيباً ينحو منحى الفلاسفة في آرائهم، وهو صاحب "فلسفة النشوء والارتقاء"؛ فإنه أبدع قصيدة رائعة، أعرب فيها عن عظمة النبيّ الأُميّ، وما حباه الله به من نعمة الفصاحة والبيان، التي تمثلت في القرآن الكريم، من روائع وعظات وأحكام، فيقول :

دعْ من مُحمّد في سُدى قرآنهِ | ما قد نحاهُ للحمة الغاياتِ
إني وإن أكُ قد كفرتُ بدينهِ | هل أكفرنّ بمُحكم الآياتِ
أو ما حوتْ في ناصع الألفاظِ من | حِكَمٍ روادع للهوى وعظاتِ
وشرائعٍ لو أنهم عقلوا بها | ما قيدوا العمرانَ بالعاداتِ
نعم المدير والحكيم وإنه | ربّ الفصاحةِ مصطفى الكلماتِ
رجل الحجا رجلُ السياسةِ والدّها | بطلٌ حليفُ النصرِ في الغاراتِ
ببلاغة القرآن قد خلَب النُّهَى | وبسيفهِ أنحى على الهاماتِ
مِنْ دونهِ الأبطال في كل الورى | من سابقٍ أو لاحقٍ أو آتي

وهذا، شاعر القطرين (خليل مطران) يشارك المسلمين احتفالهم بذكرى "مولد الهُدَى" ويستلهم في شعره دروس الهجرة النبوية، وجهاد الرسول في سبيل تبليغ رسالة ربه، فيقول في قصيدة طويلة بعنوان : "رسالة مُحمّد.. رسالة الله" :

عانى مُحمّدُ ما عانى بهجرتهِ لـمـأربٍ فـي سبـيل الـلـهِ محـمـودِ
وكمْ غُزاةٍ وكمْ حربٍ تجشّمها حتى يعودَ بتمكينٍ وتأييدِ
كذا الحياةُ جهادٌ، والجهادُ على قدْرِ الحياةِ، ومن فادى بها فودي!

وعن أثر الرسول، في محاربة الجهل، وإزالة الشرك وعبادة الأوثان، وعدله وعطفه وإحسانه على أهل الكتاب، وإقرار مبدأ الشورى، يقول شاعر القطرين :

بأيّ حلْمٍ مُبيد الجهل عن ثقةٍ وأيّ عزمٍ مذل القادة الصيد
أعاد ذاك الفتى الأُميّ أُمتهُ شملاً جميعاً من الغرّ الأماجيد
صعبان راضهما : توحيد معشرهم وأخذهم بعد إشراكٍ بتوحيد
لتلك تالية القرآن في عجبٍ بل آية الحق إذْ يبغي بتأكيد
وزاد في الأرض تمهيداً لدعوتهِ بعهده للمسيحيين والهودِ
وبدئه الحكم بالشورى يتم به ما شاءهُ اللهُ عن عدلٍ وعن جُودِ
هذا هو الحق والإجماع أيدهُ فمن يفنّده أولى بتفنيدِ !

أما الشاعر المهجري "جورج صيدح" الذي نال شهرة واسعة بين مجايليه، وكان متأثراً بالثقافة الإسلامية، وشغوفاً بجمال الألفاظ القرآنية، فكثيراً ما كان يوظّف المعاني والدلالات القرآنية بما يخدم به أفكاره ورؤاه الإبداعية، فيقول في قصيدته "صحراء يثرب" :

شـرَفاً حِراءَ الغارِ هل كحِراءَ في الدنيا مكان؟
أخذ الشهادةَ من شِفا هِ المصطفى أخذ البنانْ
في صدرهِ ضمَّ النّجيَّ وصانَ معجزة الزمانْ
وتنزّلتْ أمُّ الكتا بِ على اليتيمِ مع اللبانْ
فهدى الأعاربَ ذلك الـ أُمّيُّ بالسُّور الحِسانْ
أضحوا وفي الدنيا لهم شأنٌ وعند الله شأنْ
يا صاحبيّ بأيّ آلاء النبيِّ تكذّبان؟
....
يا منْ سريتَ على البُرا قِ وجُزْتَ أشواطَ العنان

آنَ الأوانُ لأنْ تجدّ د ليلةَ المعراج.. آنْ

أنت الذي علّمتهمْ دفعَ المهانةِ بالسنانْ

ونذرت للشهداء جنّا تٍ وخيراتٍ حِسانْ

يا صاحبيَّ بأيّ آلاء النبيّ تكذّبانْ؟

كذلك من النصارى الذين شادوا بعظمة رسول الإسلامﷺ، الشاعر "إلياس قنصل" وهو من شعراء المهجر الجنوبي، وهو صاحب المطولة العجيبة التي سمّاها "النبيّ العربي الكريم" وطبعها مستقلة في 32 صفحة، افتتحها بمقدمة قال فيها : «قرأت لأحد الكُتّاب مقالة، فإذا هي التحامل الكافر على الأُمة العربية، والتلميح الفاجر إلى جمودها لتمسكها بالقرآن الكريم.. وكررتُ إلى التاريخ أُراجع مرة جديدة، سيرة النبيّ الهاشميﷺ فإذا بي مرة جديدة أمام دنيا من الأخلاق السامية والمواقف الجبارة، خططت للعالمين صراط الحق والهدى والعدالة الاجتماعية الصحيحة التي يبحث عنها الناس، ويسفكون بين الفترة والفترة لتركيزها دماءهم! واستعرضتُ أعمال الذين يدّعون أنهم يريدون أن يقودوا العالم إلى رياض السلام والطمأنينة فلم أجد إلاّ أظافرهم تمزق المقدسات الإنسانية، وإلاّ الكذب والخداع فيما يبدون وفيما يكتمون.. فكانت قصيدتي هذه.. أنا لم أُطالع في سيرة الرسول حياة نبيٍّ دعا الناس إلى عبادة الواحد القهّار فحسب.. وإنما طالعتُ فيها ـ إلى ذلك ـ استعراضاً لوقائع العزة والكرامة وصوراً عما تستطيع أُمتنا أن تأتيه من الأفعال لو عمدتْ إلى الأخلاق العربية فجعلتْ منها النور الذي يهديها سواء السبيل». ثم يصدّر إلياس قنصل قصيدته في مدح النبيّ مُحمّدﷺ بقوله :

ماذا تهِمّ طوارق الحدثان خُلِقَ الجهاد لكلّ ذي وجدان

الحقّ شرعك فامضِ فيه مؤمّلاً ما آبَ غير الكفر بالخذلان

عميتْ نفوسُ الناس من أهوائها فأعِدْ جمال النور للعميان

لا فرقَ بين ملفّف بضلالهِ وملفّف بنواصع الأكفان

ثم ينتقل الشاعر "إلياس قنصل" إلى الحديث عن وقائع من السيرة العطرة، وثبات الرسولﷺ في دعوته، والتصدي لإغراءات القوم التي عرضوها عليه من مالٍ وجاهٍ وسلطان.. فيقول :

إني ذكرتك يا مُحمّدُ والعِدَى يتألّبون تألّبَ الذؤبانِ

ضَرَبَتْ على أبصارهم وقلوبهم ليلَ الفسادِ أصابعُ الشيطانِ

إنّي ذكرتُك يا مُحمّدُ مُصغياً لحديثِ عمٍّ ناصحٍ حيرانِ

يغريك بالذهب الوفير وكمْ عنتْ للفِلْسِ من مُهَجٍ ومن أذهانِ

إنْ كنت تبغي أن تكون مسوّداً جاءتْ إليك سيادة الأقرانِ

ما المالُ حين تقيسهُ برسالةٍ عُلْويةٍ؟ ما المجدُ؟ ما القمرانِ؟

مَثَلٌ من الخُلُقِ الجليلِ تركتهُ درساً لكلِ مناضلٍ متفانِ

ويختتم الشاعر "إلياس قنصل" قصيدته، معتذراً عما إذا كان قد قصّر فيما كان يصبو إليه من مدح وثناء أو خانه التعبير في الوصول إلى الكمال المُحمّدي، فيقول :

يا منْ يثيرُ حماستي بكمالهِ عذراً إذا شاهدت ضعف لساني

هي باقةٌ تُهدى إليك زهورها من خير ما يزهو به بستاني

ومن أشهر شعراء المهجر الجنوبي يبرز لنا اسم "رشيد سليم الخوري" الذي اشتُهِر بلقب "الشاعر القروي" وقد صاغ قصيدة رائعة بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف بعنوان "عيد البرية" يشيد بهذه المناسبة العطرة، وما فيها من ذكريات غالية، فيقول :

عيد البرية عيد المولد النبوي في المشرقين له والمغربين دوي

عيد النبيّ ابن عبد الله من طلعتْ شمس الهداية من قرآنه العلوي

بدا من القفر نوراً للورى وهدى يا للتمدّن عمّ الكون من بدوي

ثم يمضي "الشاعر القروي" في قصيدته ليستحثّ المسلمين لاستعادة مجدهم القديم منها، ويقرئ رسول الله ﷺ سلاماته وحبه وتحياته، فيهتف :

يا فاتح الأرضِ ميداناً لدولتهِ صارتْ بلادكَ ميداناً لكلّ قوي

يا قومُ هذا مسيحيٌّ يذكّركُمْ لا يُنْهِضُ الشرقَ إلا حبنا الأخوي

فإنْ ذكرتُمْ رسولَ اللهِ تكْرِمةً فبلّغوه سلام الشاعر القروي

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر الشاعر النصراني "عبد الله يوركي حلاق" الذي أمضى عمره يباهى بالإسلام، ويمتدح الرسول مُحمّداً ﷺ مُظهراً إعجابه الكبير به، حتى إنه لم يترك مناسبة أو لقاءً إعلامياً يُجرَى معه إلا وتحدث بإسهاب عن الإسلام ديناً إنسانياً سامياً هدى البشرية إلى النور والعدل والسلام، وعن القرآن الكريم معجزة إلهية تعنو لبلاغتها الجباه.

هذا الإعجاب بكل ما يتعلق بالإسلام عكسه "عبد الله حلاق" طوال حياته في أشعاره... وما زالت الجوامع والمساجد في مدينة حلب حتى اليوم تردّد في الاحتفالات

الدينية، وفي تسابيح التهجّد قبل صلاة الفجر الأشعار التي كتبها عبد الله حلاق في مديح النبيّ مُحمّدﷺ، وهي أشعار كثيرة مبثوثة بين صفحات دواوينه المطبوعة والمخطوطة، ولعل أشهرها قصيدته "النونية" التي ألقاها في مهرجان الشعر الدوري السادس الذي أُقيم بدمشق في سبتمبر (أيلول) 1961 التي مطلعها :

قبسٌ من الصحراء شعشع نوره	فجلا ظلام الجهل عن دنيانا
ومشى وفي أردانه عبق الهدى	وأريج فضلٍ عطّر الأكوانا
بعث الشريعة من غياهب رمسها	فرعى الحقوق وفتّح الأذهانا
مرحى لأُميٍ يعلّم سِفْرَهُ	نبغاء يعْرب حكمة وبيانا
من ذا يجاذبهُ الفخار وقد حمى	أمّ اللغات وشرّف العُربانا ؟
إنّي مسيحيٌّ أجَلُّ مُحمّداً	وأراهُ في سِفْر العُلا عنوانا
وأُطأطئ الرأس الرفيع لذِكْر مَنْ	صاغ الحديث وعلّم القرآنا
إنّي أُباهي بالرسول، لأنهُ	صقَلَ النفوس وهذّب الوجدانا
ولأنهُ داس الجهالةَ وانتضى	سيف الجهاد فحطّم الأصناما

وهذا الشاعر النصراني "رياض المعلوف" وهو من شعراء المهجر، نراه يفاخر بحضارة الإسلام، ويشير إلى أن القرآن الكريم معجزة خالدة، ودستور للشرائع والحِكَم، فيقول في قصيدة له بعنوان "وحّد الله" :

وحّد الله فالمؤذن وحّد	وبذكر النبيّ في العيد أنشِد
يا رسول الله أنت وعيسى	خير من يصطفى ويُرجى ويُقْصَد
عيدكَ اليوم غبطة وابتهاج	لجميع الأعراب والله يشهد
إيه قرآنكَ الكريم كتاب	رائعٌ كله ومن در منضّد
عِبَرٌ كله وقولٌ كريم	كلما طال عمرهُ يتجدد
وكفى العُرب فخرهم بانتساب	لنبيٍّ هو النبيّ مُحمّد

وللشاعر "إلياس فرحات" قصيدة طويلة، ألقاها أثناء مشاركته احتفال اللبنانيين في المهجر الأمريكي بذكرى مولد الهادي البشيرﷺ مع إخوانهم المسلمين، فتحدث الشاعر عن الجهالة التي عمّت الأرض قبل البعثة النبوية، وأفاض الشاعر فيما

جاء به الإسلام من الأُخوة الرحيمة، ودعا الشاعر إلى دراسة الإسلام وفهمه عن طريق كتب أصحابه، لا من صحائف الاستشراق، فقال :

غمر الأرض بأنوار النبوة	**كوكب لم تدرك الشمس علوّه**
لم يكد يلمع حتى أصبحت	**ترقب الدنيا ومن فيها دنوّه**
بينما الكون ظلام دامس	**فتحت في مكة للنور كوّة**
وطمى الإسلام بحراً زاخراً	**بأواذي المعالي والفتوة**
إنّ في الإسلام للعرب علاً	**إنّ في الإسلام للناس أُخوة**
فادرس الإسلام يا جاهله	**تلق بطش الله فيه وحنوّه**
يا رسول الله إنّا أُمة	**زجّها التضليل في أعمق هوّة**
ذلك الجهل الذي حاربته	**لم يزل يظهر في الشرق عتوّه**

هذا، وهناك قصيدة نظمها لشاعر حمص "وصفى قرنفلي" أعلن فيها عظمة مُحمّدﷺ وحبه لمبادئه السامية، وفيها يردّ على من يتهمه بعدم إخلاصه، وقد مهّد الشاعر لقصيدته بمقدمة صادقة، قال فيها : «عقيدتي الشخصية أن مُحمّداً رسول كبقية الرسل، وأن الدين الإسلامي قوة للشرق في جهاده القومي يجب استغلالها، وإذا لم يكن للقرآن من يد إلا صيانة لغتنا ـ واللغة أجلّ مظاهر القومية ـ لكفاه ذلك فضيلة تُحمد، ويداً تُشكَر.. ولا أرى في مسيحيتي ما يمنعني من الاعتراف بهدي مُحمّد، ويده على الإنسانية والعرب». يقول الشاعر في مطلع القصيدة :

قدْ يقولون : شاعرٌ نصراني	**يرسل الحب في كذاب البيان**
أوْ عارٌ على فتى يعربي	**أنْ تغنّى بالسيّد العدناني**
صاح بالشرق واستثار نبيّه	**فتنادوا بالفرس والرومان**
أفكُنّا لولا الرسول سوى العبدان	**ن ساءت معيشة العبدان**
فالتحيّاتُ والسلامُ أبا القاسم	**تُهدى إليك في كل آن**
ما تراءيتُ بالهوى، بلْ سقاني	**طائف الحب والهوى ما سقاني**

والشاعر اللبناني الكبير "شبلي ملاط" كان واحداً ممن جاءوا إلى مصر سنة 1927 ممثلاً دولته في مبايعة شوقي لإمارة الشّعر، وكان قد ألقى قصيدة رائعة، قالوا عنها إنها أحسن ما يقال ! حتى إن الحفل الكبير قد قام لها وقعد مرتجاً بعواصف

التصفيق والتهليل، ذكّر فيها العرب والمسلمين بأمجادهم التي عمّت الدنيا في الماضي، وطالبهم بالعمل واليقظة لانتشال العالم من وطأة الطغيان والفوضى التي صارت قانوناً. المهم أنه تحدث فيها عن فضل الرسول الكريم على العرب خاصة، وعلى الدنيا بصفة عامة، وكان مما قاله :

منْ للزمان بمثل فضل مُحمّد وعدالة كعدالة الخطّاب؟

رفع الرسولُ عماد أُمّة يعْرُب وأمدّها بالآل والأصحاب

غشت الفتوح، وصفّقت راياتها في الشرق فوق أباطح وهضاب

كما نرى الشاعر اللبناني "جورج سِلْسِلمي" يمدح نبيّ الإسلام ويجيد أيما إجادة في البيان الساحر العذب، لكنه قبل أن ينهي قصيدته، نراه يتوجّه بالاعتذار لرسول الله، خشية أن يكون الحظ قد خانه، فتلعثم لسانه.. ولم يصل إلى مبتغاه، فيقول :

يا سيّدي يا رسول الله معذرةً إذا كبا فيك تبياني وتقصيري

وأنت ربّ البيان الفذ في لغةٍ تشأوا اللغى حسن تنميق وتصوير

ماذا أوفّيك من حقٍ وتكرمة وأنت تعلو على ظنّي وتقديري

أمّا الشاعر الطبيب "نقولا فياض" في قصيدته "مُحمّد" من ديوانه "رفيف الأقحوان" يناجي النبيّ العربيّ، قائلاً :

نبيَّ العُربِ ألهمني بيانا على عجزي أهزُّ به الزمانا

وأرفع للنفوس لواء حقٍّ وأبسطه على الدنيا أمانا

وأجعلُ في حنايا كل صدر لمولدِك المبارك مهرجانا

وهذا الشاعر المبدع "جاك صبري شماس" عضو اتحاد كتّاب سوريا يستهل ديوانه "هواجس في أعماق شاعر" بقصيدة "أوراق اعتمادي" والتي يقول مطلعها :

إنّي مسيحيٌّ أُجِلُّ مُحمّداً وأُجِلُّ ضاداً مهدها الإسلامُ

وأُجِلُّ أصحاب الرسول وأهله حيث الصحابة موقف وإمام

كحّلتُ شِعري بالعروبة والهوى ولأجل (طه) تفخر الأقلامُ

أودعتُ روحي في هيام مُحمّد دانتْ له الأعرابُ والأعجامُ

وفي قصيدة أخرى، حملت عنوان "خاتم الرسل" يكشف الشاعر جاك شماس عن مدى سروره وإعجابه بالنبيّ الخاتم، ويعلن أنه سيظل ينافح عنه حتى لو اقتضى الأمر أن يُعَاقَبْ بقطع لسانه ! فيقول :

يمّمتُ (طه) المرسل الروحاني ... ويُجلُّ (طه) الشاعر النصراني

يا خاتم الرسلِ الموشّح بالهُدى ... ورسولَ نُبلٍ شامخُ البنيانِ

....

ماذا أُسطّرُ في نبوغ (مُحمّدٍ) ... درب النجاة وشعلة الفرقانِ

أنا يا (مُحمّدُ) من سلالةِ يعْرُبٍ ... أهواكَ دينَ محبةٍ وتفانِ

وأزودُ عنكَ مولّهاً ومتيّماً ... حتى ولوْ أُجزى بقطع لسانِ

أكبرتُ شأوكَ في فصيحِ بلاغتي ... وشغافِ قلبي مهجتي وبياني

....

مهما مدحتكَ يا (رسولُ) فإنكم ... فوق المديحِ وفوق كلّ بيانِ

هذه بعض الورود والأزهار التي اقتطفناها من بستان الشّعراء النصارى المعاصرين، والمبدعين العرب الحقيقيين ولوْ أن المقام يحتاج لشواهد شعرية أكثر من ذلك؛ لأثقلنا أربعين بعيراً مما جادت به قرائح الشعراء النّصارى... الذين وجدوا في شخصية نبيّ الإسلام منهلاً عذباً، وموردا صافياً.. فراحوا ينهلون من معينه الذي لا ينضب... فجادت قرائحهم، وتفجرت ملكاتهم الخالقة بكثير من الروائع الخالدة، حسبما اشتهت أنفسهم !

فسلام على الشّعراء الصادقين !

من هو ميخائيل ويردي ؟!

إنه الشّاعِر والموسيقي السوري "ميخائيل بن خليل خير الله ويردي" الذي عاش في الفترة ما بين (1904-1951) وقد ولِدَ في دمشق وتوفي فيها. درس مواد التعليم الثانوي على يدي والده، وبعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية بدأ حياته العملية محاسباً في المحلات التجارية، ثم درس الحقوق، وعُيِّن خبيراً لدى المحاكم. أتقن فن التصوير الشمسي، وكان مولعاً بتعلّم اللغات الأجنبية، لذلك كان يتقن التركية والفرنسية واليونانية والروسية، حتى صار من كبار مثقفي عصره. وقد بدأ دراسة الموسيقى والعزف على العود. وقد شارك في تأسيس النادي الموسيقي السوري، والرابطة الموسيقية في دمشق، وعُيِّن مستشاراً موسيقياً في المعهد الموسيقي الشرقي التابع لوزارة التربية. وقد أسهم كتابه "فلسفة الموسيقى الشرقية" (1947) في إبراز عدد كبير من جوانب الموسيقى الشرقية، وقدّم فيه حلولاً موسيقية حول الإشكال في الموسيقى العربية الذي بحث في مؤتمر القاهرة الموسيقي الأول عام 1932 وحاز هذا المؤلف على تقدير منظمة اليونيسكو. كما رُشِّحَ هذا الكتاب "فلسفة الموسيقى الشرقية" لجائزة نوبل سنة 1951 وقد كرّمت وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية ميخائيل ويردي بعد وفاته بتقليده وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى تقديراً لخدماته في مجالات الأدب والموسيقى وما كتب حول أثرهما في السلام.

كما ألّف في الموسيقى كُتباً أخرى، مثل كتابه : "الموسيقى في بناء السلام" الذي تُرجِمَ إلى الإنجليزية والفرنسية، و"جولة في علوم الموسيقى العربية"، و"شيء من الموسيقى العربية".

هذا، وقد ألّف عدداً آخر من الكتب في مجالات مختلفة، مثل كتابه : "العروبة والسلام" (1951) وقد تُرجِم إلى الإنجليزية، و"الأدب في بناء السلام". وفوق ذلك كله ديوانه الشعري "زهر الربى" الذي يحتوي على 450 قصيدة، و3905 بيتاً، والذي طبعه بعد أن زار مسجد محمد علي بالقاهرة 1946 وأعجب هناك بالفنون الإسلامية.

ثـقـافـة الـشّـاعـر

لأول وهلة يستطيع القارئ لشعر ميخائيل ويردي أن يمسك بمفاتيح شخصيته، وثقافته المتنوعة، وأغراضه المتعددة، ونفسيته المتسامحة، وخياله الواسع، وبيانه العذب المرصّع بالحِكَم والأمثال، ولِمَ لا؟ فهو الأديب، العليم باللغات، وعالِم الموسيقى، وعاشِق التصوير، نلمس ذلك في قوله عن رسالة الفن والشِّعر في الحياة :

مِنَ الشّعر ما يبدو كضربٍ من السّحر — وما الفنُّ إلا نفحةُ اللهِ في الفكر

بلْ يذهب الشّاعر إلى أبعد من ذلك، حين يرى الفقير هو فقير الفن والأدب، حتى وإنْ حاز كنوز الجواهر النفيسة، فيقول :

هام الجهولُ بجمع الماسِ والذَّهبِ — وعاش مُفتقِراً للفنّ والأدبِ

ونراه يصف الشعر بالروح الحيّة السارية المتوشّحة بقلائد المعاني الجميلة والألفاظ البديعة، وذلك في قوله :

أخلِق بفكرِكَ أن يحيا مع الشُّهُبِ — مُنزّهاً عن هوى الأوهامِ والرِّيَبِ

فالشّعرُ روحٌ سعى حتى ارتدى حُللاً — لفظيةً فاستحقَّ السجن في الكُتُبِ

ولعلّ من أبرز الخصائص النفسية التي يتمتع بها الشَّاعر خُلق التسامح والعفو، ولِين الجانب، ورقّة القلب، حتى مع خصومه وأعدائه ! وقد أفصح عن ذلك في قوله :

تعوّدتُ حُبّ الصفحِ عن كلّ مُذنبٍ — فظنّ العِدى أنّي أعفُّ لمأربِ

فجازاهم القاضي بعكس الذي به — جزاني وأمستْ رِقّة القلبِ مذهبي

وكثيراً ما يدعو الشَّاعر إلى السِّلْم والوحدة والتضامن الأخوي، باعتباره أغلى ثروات الشعوب والأُمم.. وقد ألّف عدة كتب حول هذا الموضوع، مثل : الأدب في خدمة السلام، والعروبة والسلام، والموسيقى والسلام. وقد تباهى الشّاعر بانتسابه لأُمةٍ لها تاريخ حافل بأخلاق التسامح والرحمة التي لم تعرف الدنيا لها مثيلاً، فقال :

تدلّ على نُبل الكِرامِ الملامحُ — وثروتهم يوم الفخار المدائحُ

وكمْ أُمةٍ لم تجمع المالَ خلّفتْ — من النفع ما تهفو إليه الجوانحُ

غِنانا اتحادُ العُربِ في ظل وحدة — تُعلّمُ أهل الأرض كيف التسامح

ولا يرى هذا الشَّاعر النصراني أن العروبة مجرد وطن وجدود، ولا هي تقف عند حدود اللغة المشتركة، بلْ هي أبعد وأهم من ذلك بكثير، إنها وشائج دينية متينة، يظللها التوحيد الذي هو الوصية الأولى في رسالات السماء، فيقول :

قِيلَ العروبةُ موطِنٌ وحدودُ وعوائلٌ منسوبةٌ وجدودُ

وأضاف قومٌ أنها لغةٌ سَمَتْ ببيانها والمنصفون شهودُ

وأجبتُ بلْ هي فكرةٌ موضوعةٌ للخلْقِ أجمَعَ قصدها التوحيدُ

بلْ يذهب الشّاعر إلى أبعد من هذا، عندما يُلِحُ في دعوته على معاني الإخاء والمحبة الإنسانية، تحت راية الدين، وأنوار النبوات، ويبدو هذا في قوله :

تآخوا كما قال المسيحُ وأحمدُ فما الحُبُّ إلاّ ثروةٌ لا تُحدَّدُ

وإنْ هامَ قومٌ بالثرى فبلادنا لها في مجال الروحِ إرثٌ مُخلّدُ

فواجبنا استثمارهُ ثمّ نشره على الناسِ طُرّاً فالإخاءُ يُوحّد

ونظراً لأنّ الشّاعر رجل تربوي في المقام الأول، لذلك كَرّس مفاهيم التربية والأخلاق الحميدة في المجتمعات، ودعا إليها كثيراً في أشعاره، حيث يصورها كأشجار مثمرة تنمو وتمتد أغصانها كلما تعهدها صاحبها بالرعاية، فيقول في ذلك :

هي الأخلاقُ تنبتُ كالنباتِ وتنمو باعتناء الوالداتِ

تزيدُ رياضُها بالرّيّ حُسناً إذا سُقِيتْ بماء المكرُماتِ

تقوم إذا تعهّدها المربي وغذّاها بآياتِ الهُداةِ

وتبدو مثل أغصانٍ تدلّت على ساق الفضيلة مُثمرات

كما نظم الشَّاعر أروع وأعذب قصائده في "الأُم" التي هي وصية الأديان الثانية بعد وحدانية الله تعالى، ووصفها بأنها المدرسة الكبرى لتخريج الرواد والأساتذة، فقال فيها :

فحُضن الأمّ مدرسةٌ تسامتْ بتخريج الأساتذة الثقاتِ

وأهل الرأي قد عهدوا إليها بتربية البنين أو البناتِ

وحالُ الشعب ليس تُقاسُ إلا بأخلاق النساءِ الوالداتِ

فما للأمهات جهِلنَ حتى نبذنَ اليوم أسمى الواجبات

كما أنّ إلمام الشَّاعر بالثقافة الإسلامية، وتأثره بالمعاني الإيمانية، بدا واضحاً في غالبية أشعاره، التي تخللتها الاقتباسات والمضامين القرآنية، كقوله :

مَنْ ينصر الله كان اللهُ ناصرهُ ومنْ يحاربهُ لا يأمنْ مقادرهُ

أوْ كقوله :

كُلُّ يومٍ فيه للخلْقِ عِبَر   وأجَلُّ الناس قَدراً من ذَكَر

قُوتِلَ الإنسانُ ما أكفرَه   أهملَ الروحَ فأغواهُ الحَجَر

كيف ينسى عِظةً بالغةً   خطّها المولى جزاءً للبشر

وقاموس الشّاعر فيه حظ وافر من شعر التأمل والحِكَم والمواعظ الجليلة، التي تحرك الخاطر، وتوقظ الغافل، وتحثّ على الاعتبار، والوقوف عند معالم الحق وحدوده، ففي دعوته إلى إقامة العدل وتحقيق المساواة، ينادي قائلاً :

يا ابن القُساةِ اتّعِظ بالموتِ والنار   وارضَ النظامَ الذي يرضى به الباري

أتشربُ الدمعَ من أحضان مُنتحِب   وتستلِذُ أنينَ الجائعِ العاري

وللشّاعر قصائد عديدة في المناجاة والتضرع والابتهالات والتسابيح، التي يتوجّه بها إلى الملك القدوس بارئ السماوات والأرض، منها قوله :

عرفتُك يا قدّوسُ جُهد استطاعتي   وضاقتْ بإدراك الكمال وسيلتي

فهبني بإقراري بلوغ سعادتي   ووجّه إلى نفع العبادِ مشيئتي

فن التشطير

عَمَدَ الشّاعر كثيراً في ديوانه إلى إحياء فن "التشطير" عن طريق "التخميس" وهو جعْل البيت مقطّعاً من خمسة أشطر بدلاً من اثنين، وذلك بإضافة ثلاثة أشطر إلى البيت الأصلي. وقد اختار الشاعر أجمل ما أبدعت قرائح الشّعراء الكبار، فقام بمعارضتهم، أمثال : بشّار بن برد، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، وأبي العلاء.. والبارودي، وشوقي، وحافظ، وغيرهم، كقوله في معارضة المتنبي :

إنّ الحياة وما فيها من العجب

تُغري بني الجهل باللّذات والنشبِ

ولستُ منهم فنورُ العِلْمِ كان أبي

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعتْ كلماتي من به صمَمُ

وكذلك قولـه :

تـردّ المـعـالـي ما يـود المـهاجـم

وتسـتعبـد الأهـواء مـن لا يـقــاوم

فـذللـــتها والمـكـرمـات تمـائـــم

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتـأتـي عـلـى قـدر الـكـرام المـكارم

وقولـه أيضـاً :

تمَلُّكُ الـنفس قصدٌ لستُ أملـكهُ

وأتعبُ الناسِ مَنْ في الوهمِ مسلكهُ

فصُنْ دمَ الفكرِ فالأهواءُ تسفكهُ

مـا كـلّ مـا يـتـمـنـى المرءُ يـدركـهُ

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

وقوله أيضـاً :

علّم سـواك الصّدق تكسب أجـرَهُ

فالـحقُ يـفـضـحُ مـن يُـمـثـلُ دورهُ

ولَـقـد يُـقــال لِمَـن يـعظّـم قــدرَهُ

يا أيـهــا الـرجـلُ الـمـعّـلـمُ غـيـرهُ

هــلا لـنــفسـك كـان ذا التـعـلـيـم

ويقول في معارضته للشافعي، مادحاً آل البيت :

إليـكـم فـي جلـيـل الأمـرِ يُحتـكَمُ

ومـنكم فـاض نـورُ الـعـدل ِوالكـرمِ

يا آل بـيـت رسـول ِالـلـه حُبّـكـمُ

فـرضٌ من اللـه فـي الـقرآن أنـزله

فـإنـما مجـدكم بـين الـورى عَـلَـمُ

يكفيكمُ من عظيم الفخرِ أنكمُ

مــنْ لـمْ يُصلِّ عليكم لا صـلاة له

وللشّاعر مدائح أخرى كثيرة، خاصة في حب آل البيت الأطهار، فيقول مادحاً أحدهم في قصيدة بعنوان : "ماذا تقول بمدحكَ الشّعراءُ" :

ماذا تـقـولُ بـمـدحـك الشّـعـراءُ — وعُـلاك تـرفـعُ أصلـهُ الـزهـراءُ

واللـهُ قـد أثـنـى عليكم بالـذي — قـد شـرّف الثـقـلين مـنـه ثـنـاءُ

آلُ الـرسـولِ بكـم يـبـينُ لنـا الهُدى — ويـزولُ عـن عـين اليقـين غـشـاءُ

نـسـبٌ كمـثـلِ الصبـحِ لاحَ لنـاظـرٍ — مـا للـصبـاح عـن العـيـون خـفـاءُ

نفـحـت مـآثـرك الزكـية في الـورى — وتـأرجـت بـثـنـائـك الأرجـاءُ

وخـلايـق المخـتـار فـيك تجـمّعت — فـتـشـابـه الأبـنـاءُ والآبـاءُ

فنـظرت بالنور المبين إلى المـدى — ما أدركـت أثـراً لـه الـزرقـاءُ

وعِداك قد شهدوا بفضلك في العُلَى — والـفـضـلُ ما شـهـدت به الأعـداءُ

والشـامُ أمـسـتْ شامـة بك نشـرها — كالـمـسكِ يكـبـو مـن شـذاه كـبـاءُ

وبجاهـك الفـضلاءُ جـلّ مقـامهـم — وتـشـرّفـت بعلـومـك العـلـمـاءُ

في ظلال (نهج البردة)

بنظرة سريعة إلى قصيدة "نهج البُردة" لميخائيل ويردي نجد الشّاعر التزم بنهج المعارضات في المدائح النبوية الشهيرة، ففعل مثلما فعل أسلافه من شعراء المدائح كالبوصيري، والبارودي وشوقي؛ فغنّى على قيثارتهم، ونسج على منوالهم.. فنراه يذكر موضع "جيران بذي سلَم" وما له من دلالة رمزية تاريخية، فاستهلّها بقوله :

أنوارُ هادي الورى في كعبةِ الحرمِ فاضتْ على ذِكرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ

ثمّ ذمّ الدنيا وزخارفها وفتنتها، وعاتب النفس على تقصيرها ولام جنوحها إلى الهوى، ثم دعاها للعودة إلى رشادها وهدايتها :

يا ليت أحلامَ عمري لم تضع بددا بحُبِ قصرٍ من الأوهام منهدمِ

فاربأْ بنفسك أن تنهار من ألم واربأْ بحُسْنِك أن يربدّ من سأمِ

وعرض الشّاعر ما لاقاه صاحب الرسالةﷺ من معاداة قومه له، عندما دعاهم إلى التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام.. فتحمّل الصبر طويلاً في سبيل تبليغ رسالة ربه، حتى أتمّ الدين وأكمل شرائعه على أحسن صورة :

وحَّدْت ربّك لمْ تُشرِك بهِ أحداً ولست تسجدُ بالإغراءِ للصنمِ

عاديت أهلك في تحطيمِ بدعتهم من ينصر الله بالأصنام يصطدمِ

وينعى الشّاعر أصحاب الحضارات المادية البائدة (كالفراعنة والبابليين والرومان) وكيف آلتْ مآثرهم إلى زوال، وذلك بخلاف حضارة الإسلام الروحية التي مازالت حية معطاءة لمسيرة البشرية :

أبناءُ بابلَ أفنتهمْ مآثمها وآلُ فرعونَ ما شادوا سوى الهَرَمِ

وتدْمُرُ ومغانيها غدتْ خِرَباً والذّكرُ بالخيرِ غير الذّكر بالإرمِ

يا ليت من شيدوها للفناء رأوا عُقبى المباني فأغنتهم عن النّدَمِ

زالوا وزالتْ مع الآثارِ عزتهم فإنْ تجادل سلْ التاريخ واحتكِمِ!

والمُصطفى خالدٌ في الناسِ ما بَزَغَت أمُ النُّجومِ ومَمدوحُ بِكلِّ فَمِ

كذلك نراه يُلِحّ على الإشادة بإنسانيات الرسولﷺ، وعاطفته نحو البشر وسائر الكائنات، كما أفاض الشعراء السابقون من الوقوف عند هذا الجانب الإنساني العظيم، فيخاطبه، قائلاً :

ترعى اليتيمَ وترعى كلَّ أرملةٍ   رعيَ الأبِ المُشْفقِ الباكي من اليتّم

كما مدح الشّاعر خُلُق "الرحمة" الذي هو من أوضح أخلاق النبوة، فقال :

كأنّما قلبهُ ينبوعُ مرحمةٍ   مستبشرٌ جذلانُ بالبَسَمِ

وقوله أيضاً :

وكُنت أرأف بالمسكينِ مِن دُوَلٍ   رأت بِأمثالِهِ سِرْباً من الغَنَمِ

وقوله كذلك :

في دينك السمحِ لا جنسٌ ولا وطنٌ   فكل فردٍ أخٌ يشدو على عَلَمِ

وأبدى الشاعر إعجابه الشديد بمنهج الرسول الدعوي القائم على الموعظة الرقيقة، والمجادلة بالتي هي أحسن، فقال :

أحببتُ دينك لما قلت أكرمكم   أتقاكمُ وتركت الحُكمَ للحَكَمِ

وقلت إني هُدىً للعالمين ولمْ   تلجأ إلى العُنفِ بل أقنعت بالكلِمِ

وقد فطِن الشّاعر إلى سر نجاح الدعوة المُحمّدية، بأن هذا السر يكمن في أن سيّد الدعاة وأعظمهم مُحمّدﷺ خاطب الناس على قدر عقولهم، فأحبوه، واتبعوه :

خاطَبت كُلَّ ذكيٍّ حسبَ قُدرَتِهِ   ولَم تَكُن بِغَبيٍّ القَومِ بالبَرِمِ

ولم ينسَ الشّاعر ما أسداه رسول اللهﷺ للمرأة من احتفاء وتكريم، لم تشهد له الدنيا مثيلاً، وسبق به حضارات الشرق والغرب، الزاعمين بأنهم أول من نادوا بكرامة المرأة وحقوقها :

عَزَّزت كُلَّ فَتاةٍ حِينَ صِحت بِنا   ما أولَد العِزُّ غَيرَ السّادةِ الحُشُمِ

فَأنت أوَّلُ مَن نادى بِمأثَرَةٍ   يَظُنُّها الغَربُ من آلاءِ بَعضِهِمِ

ونجد الشّاعر يطلب "الشفاعة" من الرسول في الآخرة، كما طلبها الآخرون من قبل :

فاجعلْ هواكَ رسولَ الله تلقَ بهِ   يوم الحسابِ شفيعاً فائقَ الكَرَمِ

ومثلما ختم المادحون قصائدهم بالصلوات المباركات على خاتم الأنبياء، اختتم أيضاً ميخائيل ويردي قصيدته بالصلوات والتسليمات على النبيّ الكريم، فقال :

صلّى الإلهُ على ذِكْراكَ مُمتدِحاً   حتى تؤمّ صلاةَ البعثِ بالأُمَمِ

على جانب آخر، انفردت قصيدة ميخائيل ويردي بقسمات واضحة للعيان، لا تحتاج إلى عناء كثير، أوْ إعمال فكر، نظراً للبساطة والوضوح الشديد، الذي اتسمت به مضامين القصيدة.. فامتازت بميزات فريدة عن مثيلاتها في هذا الغرض، منها :

اختلاف الاستهلال، فلم يلجأ الشّاعر إلى الغزل كما فعل غيره، إنما دخل في جوهر الغرض مباشرة، فقال :

أنوارُ هادي الورى في كعبةِ الحرمِ   فاضتْ على ذكرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ

أيضاً، قسّم الشّاعر قصيدته إلى مجموعة من المقاطع؛ كل مقطع فيها أشبه بلوحة فنية بديعة مستقلة، تتغنّى بجانب من جوانب الكمال والجمال المُحمّدي؛ وكلها مترابطة في وحدة الموضوع والغرض الشريف.

وقد وجّه الشّاعر الخطاب في كل مقطع إلى الممدوح وهو الرسول الأكرمﷺ مادحاً صفاته تارة، أوْ مُذكّراً بجليل أفعاله ومواقفه تارة أخرى، أوْ منادياً له بمختلف ألقابه وأسمائه، كقوله مثلاً : «يا أيها المصطفى، ويا نبيّ الهُدى، ويا هادي الفكر، ويا أزهد الناس، ويا أجمل الخلق، ويا عبقريّ الورى الأُميّ، ويا فخر أُمتنا، ويا سيّد المُصلحين العُرب والعَجَم، ويا نفحةً من جِنان الخُلد، وغير ذلك».

وامتازت هذه القصيدة برقّة وعذوبة لا مثيل لها، فلم يلجأ الشّاعر إلى غريب الألفاظ، بلْ جاءت تراكيبه عصرية سهلة، لا تحوِج القارئ أوْ المستمع إلى السؤال عنها، كما جاء المبنى متسقاً مع المعنى، مما أضفى على القصيدة موسيقى عذبة جميلة؛ خاصة أن ميخائيل ويردي من علماء الموسيقى وعشّاقها، وقد ظهر أثر ذلك في مخاطبته للرسولﷺ، في قوله :

كأنما النــاسُ آلاتٌ مبعثــرةٌ   أخرجت منها جميلَ اللحنِ والنُّظُمِ

ولولا بيت واحد يتيم في القصيدة، ألمح فيه الشّاعر إلى عقيدته؛ لما عرفنا أنها من إبداع شاعر نصراني ! وهو البيت الذي يقول فيه :

يا أيها المسلمون الفخرُ فخركمُ   ونحنُ إخوانكم في النُّطْقِ والعَلَمِ

ولمّا كان الإبداع عاكساً لطبيعة صاحبه ونفسيته؛ فإن هذه القصيدة تكشف عن موهبة شاعرية خلاّقة، ومهارة فنية بارعة، وروح متشبعة بالإيمان، وعقلية منفتحة واعية.

لكن، لا ندري ما الباعث أوْ ما السبب أوْ ما هو الموقف الذي ساق ميخائيل إلى كتابة هذه القصيدة العجيبة، التي يبدو أنها استغرقت معه زمناً طويلاً، حتى خرجت على هذا النحو الفائق البديع ؟!.

نَهْـج البُرْدَة

للشّاعِر ميخائيـل ويـردي

أنوارُ هادي الورى في كعبةِ الحَرَمِ ... فاضتْ على ذِكْرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ

وأرسلتْ نَغَمَ التوحيدِ عن مَلَكٍ ... كالروحِ مُنطلقٍ كالزهرِ مُبتسمِ

فمزجُ روحك بالروح التي ازدهرت ... يُغنيك عن مزجِ دمعٍ ساجمٍ بدمِ

وشمُّك العِطْرَ فوّاحاً بروضتها ... ألذُّ من عِشقِ ريمِ القاعِ والأكَمِ

ومنْ يهِمْ بعظيمٍ يتّحِدْ معهُ ... بالرأي والفكر قبل الوسْمِ والأرَمِ

والحُبُّ صنوانِ : حُبُّ الروح خيرهما ... فلا تكن للهوى الفاني بملتزمِ

يا ليت أحلامَ عمري لم تضع بددا ... بحُبِ قصرٍ من الأوهام منهدمِ

وليتني لمْ أهِم إلا بمن عُرِفوا ... برقّة القلبِ لا بالظُّلْمِ والعقمِ

فكمْ حبيبٍ إذا خالفت فكرتهُ ... جازاك بالصَّدِّ قبل البحثِ في التُّهَمِ

ومَنْ يُساق حبيباً صدّ خمرته ... وسحرَ ألحانهِ يندم وينفطِمِ

فاربأْ بنفسك أن تنهار من ألمٍ ... واربأْ بحُسْنك أن يربدّ من سأمِ

واجعلْ هواك رسولَ الله تلقَ بهِ ... يوم الحسابِ شفيعاً فائقَ الكَرَمِ

هذا رسولُ الهُدَى فارشفْ على ظمأٍ ... من وِرْدِهِ العذْبِ عطفاً شاقَ كلَّ ظمي

كأنّما قلبهُ ينبوعُ مرحمةٍ ... مُستبشِرٌ جذلانُ بالنَسَمِ

يا أيُّها المصطفى الميمونُ طالعهُ ... قد أطلعَ الله منك النورَ للظُّلَمِ

وحَّدْتَ ربّك لمْ تُشرِك بهِ أحداً ... ولست تسجدُ بالإغراء للصنمِ

وكيف تُشركُ بالرحمنِ آلهةً ... لا يستطيعون ردّ الروح للرممِ

عاديت أهلك في تحطيمِ بدعتهم ... من ينصر الله بالأصنام يصطدمِ

كأنّ ربك لمْ يخلق لدولتهِ ... سواك من مُرْسَلٍ بالحق معتصِمِ

أدّى الرسالةَ حتى ضجَّ من سَأمٍ أجنادُ إبليسَ واشتدّ الأسى بِهِمِ

وأفلستْ بعد إقبالٍ جهنّمُهُمْ ولم تجد حطباً في الأشهرِ الحُرُمِ

كأنّ أحمدَ بالأصفاد كبّلهم فارتدّ جيشهمُ المقهور بالسَّدَمِ

* * *

شَرْعٌ على أقْوَمِ الأركانِ أسّسهُ للعالمينَ نبيٌّ طاهرُ الشّيَمِ

غذّى عقولَ الورى حتى أتاح لهم عيشَ النعيمِ ونقّاهم من الأثَمِ

وعلّم العُرْبَ حتى ساد نسْلُهُمُ هامَ الممالكِ وارتاحتْ لعدلهِمِ

كأنما الشرعُ جزءٌ من نفوسهِمِ فإنْ همُ وعدوا استغنوا عن القسمِ

قومٌ إذا استُخْصِمُوا كانوا فراعنةً وإنْ همُ قسَّوا أرضوك بالقِسْمِ

وخلّدوا مُلْكَهم ريّان مؤتلِقاً وكلُّ ما شادتْ الأطماعُ لم يدُمِ

إنّ الممالك إنْ شِيدتْ على جشَعٍ تفْرِس ولا خير في الحيتانِ للبَلَمِ

وقد يَمَلُّ الفتى بالشيبِ من أرَبٍ ولا يملُّ عبيدُ المالِ من بَشَمِ

أتُّونُ نارٍ زفورٍ جدُّ محتدمٍ والمالُ يهوي بخلْقٍ جِدَّ مُزْدحِمِ

لوْ أدركَ المرءُ أن المال تاركهُ لمَّ صُحبةَ خوّانِ الودادِ عَمِي

ولوْ درىَ العاشقُ الموتورُ كيف سلا أحبابهُ لم يبتْ يوماً بقربِهِمِ

كفاكَ همّاً فأهواء الدُّنا غُصَصٌ تُودي بصفوكَ مثلَ السُّمِّ في الدَّسَمِ

والزهدُ راحةُ فكرٍ من متاعبهِ فإنْ دعانا وأهملناهُ ينتقِمِ

هِمْنا بفانٍ فأغرانا وأذهلنا وأيُّ قلبٍ بحب الأرض لمْ يهِمِ

* * *

يا أزهدَ الناسِ في الدنيا وفي يدهِ خزائنُ المُلْكِ والأنصارُ كالخَدَمِ

عجبتُ كيف تعاني الجوع مُرتضياً حظَّ الفقيرِ ولمْ تلتذَّ بالنّخَمِ

ولمْ تبالِ بتيجانٍ مُرصّعةٍ ولمْ تكنْ للألى ضلّوا بِمُرْتَسَمِ

تقولُ ربّي أجِرْهُم من عمايتهم وتصرفُ النفسَ نحو المورِدِ الشّبِمِ

فاستضحك القومُ هُزْءاً واستبدّ بهم وهُمْ فصيّرهم لحماً على وضَمِ

كأنّ أفكارهم من طول ما شقيتْ ألقتْ بأرواحهم في وهدة الحُطَمِ

والنارُ حُرقةُ نفسٍ من ندامتها يا بؤس من لم يحِدْ عن شرِّ مُغْتَنَمِ

فاسلمْ بنفسك إن الروح يُعْوِزُها رضا الذي علّم الإنسانَ بالقلمِ

فلا طعامٌ من البأساءِ يُنقذنا ولا لِباسٌ يقينا شِرَّةَ الضَّرَمِ

وهل تفيدك أبراجٌ مُشيّدة والموتُ في القصر مثل الموت في الخِيَمِ

والمرءُ يفنى إذا لمْ يُبقِ مآثرهُ تحيا إذا باتتْ الأجسادُ في الرَّجَمِ

والعمرُ إنْ طال يومٌ لا رجوع لهُ فهيئ الزادَ قبل الشيبِ والهَرَمِ

أسلمتُ للهِ أمري فهو يكلؤني كالزهرِ في الحقلِ والأطيار في العلَمِ

ألست يا أيها الإنسانُ أفضَلَها وبارئُ الكونِ قد حلاّك بالحِكَمِ؟

وكيف تسمو بروحٍ بالثرى علِقتْ وكيف تعلو على الآسادِ في الأجَمِ؟

فإنْ يغِبْ عنك أن العيشَ مرحمةٌ فكيف تدركُ أن الفوزَ بالألَمِ؟

* * *

أقولُ للمصطفى أعْظِمْ بما ابتدعتْ آياتُ بِرّكَ من خيرٍ ومن نِعَمِ

لوْ يتْبَعُ الخَلْقُ ما خلّدت من سُنَنٍ لم يفتِك الجهل والإعوازُ بالأُممِ

ولمْ يرَ الناسُ أحكاماً وفلسفةً في الإجتماعِ ستلقيهم إلى العدَمِ

مذاهبُ أحدثتْ في الأرض بلبلةً وأورثتنا بلايا الحربِ والإزَمِ

أين الزكاةُ وأين العُشْرُ يحملهُ أهلُ الغِنى للأُلى ماتوا من السقَمِ؟

هلْ كنت تُبْصِرُ ما أودى بعالمنا من قبلِ أنْ فاض بالويلاتِ والنّقَمِ؟

أمْ هل تنبأت عما تمَّ في زمنٍ تسودهُ فكرةُ الإلحادِ والتُّهَمِ؟

نبوءةٌ حارب الجبّارُ مُتّكِرها وروّع الناسَ بالتعذيبِ والحُمَمِ

* * *

فيا نبيّ الهُدى حُيّيت من عَلَمٍ بالطُهر مُتّسِمٍ بالعدل مُدّعِمِ

أحببتُ دينك لما قلت أكرمكم أتقاكمُ وتركت الحُكمَ للحَكَمِ

وقـلـت إني هُـدىً لـلـعـالمين ولم تلجأ إلى العُنفِ بل أقنعت بالكلِمِ

في دينك السمح لا جنسٌ ولا وطنٌ فـكـل فـردٍ أخٌ يشـدو عـلـى عَـلَـم

الـلـهُ أكبرُ والأكـوانُ فـانـيـةٌ ومـنْ يـلُـذْ بـجـلال الـلـهِ لا يُـضَـم

سبـحـانَ من بيديهِ المُلْكُ أجمعهُ ويُـرجَـعـون إلـيـه يـوم بـعـثِـهِـم

* * *

يا عبقريَّ الورى الأُميَّ هل سمعتْ من قبلك العُرْبُ وحياً جِدَّ مُنْسَجِمِ

آيـاتُـك الـغُـرُّ إعـجـازٌ تَـنَـزَّه عـن نِـدٍّ وَلَـيس دَعِـيٌّ الحُبِّ كـالسَّـدِمِ

كـأنما الـنـاسُ آلاتٌ مـبـعثرةٌ أخرجت منها جميلَ اللحنِ والنُّظُمِ

مُـحَـمَّـدٌ رَدَّ مَـن ضَـلّـوا وَعَـلَّـمَـهُـم حَقَّ الـنِّـساءِ الـلَّـواتـي كُنَّ كالـرُّمُمِ

يـا فَـخـرَ أُمَّـتِـنـا في الأرضِ قـاطِـبَـةً وَسَـيِّـدَ المُصـلِـحينَ الـعُـربِ والـعَـجَـمِ

عَـزَّزت كُلَّ فَـتـاةٍ حـينَ صِحت بِـنـا مـا أولَـد الـعِـزُّ غَـيرَ السّـادَةِ الحُشُـمِ

فَـأنت أَوَّلُ مَـن نـادى بِـمـأثَـرَةٍ يَـظُـنُّـهـا الـغَـربُ مـن آلاءِ بَعـضِـهِـم

خـاطَـبت كُـلَّ ذكـيٍّ حَـسبَ قُـدرَتِـهِ وَلَـم تَـكُـن بِـغَـبـيٍّ الـقَـومِ بـالـبَـرِمِ

وَكُـنـت أرأف بـالمسـكينِ مِـن دُوَلٍ رَأت بِـأَمـثـالِـهِ سِـرْبَـاً مِـن الـغَـنَـمِ

إنْ كان ينجعُ طِبُّ الناسِ في جسدٍ فـأنت تـفـعـلُ بـالأرواحِ كـالحُسُـمِ

تـرعـى الـيـتـيمَ وتـرعـى كلَّ أرملـةٍ رعيَ الأبِ المُشْفِقِ الباكي من اليَتَمِ

فـارع الـنـفـوسَ الـتـي ذلَّـتْ ويـتّـمـهـا فقدُ الكريمين حُبِّ الخيرِ والشَمَمِ

وهبْ لـنـا مـبـدأً حـيّـاً وتضـحـيـةً بـهـا تـفـرّدت بين الـنـاسِ مـن قِـدَمِ

إنّ الـقـلـوب إذا ألّـفـتـهـا ائـتـلـفتْ والـودُّ حـبـلٌ فـإنْ تصـرمـهُ يـنـصَـرِمِ

مـاذا يـطـهّـرُ قـومـي مـن تـنـابـذهـم والصـدُّ يـعْـلَـقُ بـالأرواحِ كـالـرَّشَـم

أجـفـوةٌ ورعـاةٌ غـرّهـمْ طـمـعٌ كـأنـهـم عـن نـداء الحقِّ في صَـمَـمِ

أسـمـعـتـنـا فـنـسـيـنـا واسـتـقـلّ بـنـا هوىً فأمسى عزيزُ القومِ كالحَطَمِ

فـانـفـخ بـنـا نـخـوةً تجمع أواصرنا وابـعـثْ بـنـا هِـمّـةً يا بـاعـثَ الـهِـمَـم

أبـنــاءُ بـابـلَ أفـنــتـهــمْ مـآثــمـهـا وآلُ فـرعـونَ مـا شـادوا سـوى الـهَـرَمِ

وتـدْمُـرٌ ومـغـانـيـهـا غـدتْ خـرِبـاً والـذكـرُ بـالخيرِ غير الـذِّكـر بـالإرمِ

يـا لـيت مـن شـيـدوهـا لـلـفـنـاء رأوا عُقْبى المباني فأغنتهم عن النّدَمِ

زالـوا وزالتْ مـع الآثـارِ عـزتـهـم فإنْ تجادل سلْ التاريخَ واحتكِمِ

والمُصطفى خالدٌ في الناسِ ما بَرُغَت أُمُّ الـنُّـجـومِ ومَـمْـدوحٌ بِـكـلِّ فَـمِ

* * *

يـا أيـهـا الـعَـرَبُ المأثـورُ مجدهـمُ ما فازَ بالمجدِ شعبٌ شبهُ مختصمِ

أيصبـحُ الخيرُ شـراً مـن تـخـاذلـنـا ونـغـتـدي نُـهْـبـةَ الـغِـربـانِ والـرَّخَـمِ

إنّ الـكــرامــةَ تـأبــى أن نـذلّ ولمْ نهضم حقوقَ الورى كالهائجِ الضّرِمِ

فاستجمِعوا أمركم فاللهُ وحّدكم والمكرُ فـرقـكـم في حـومـةِ الجُسُـمِ

وشـرعُ أحـمـدَ بـالـقـرآنِ هـذّبـكـم وجَـدَّ في أمـركـم بـالحبّ والسَّـلَـمِ

* * *

يـا أيـهـا المسلمون الفخـرُ فخـركمُ ونـحـنُ إخوانكم في الـنُّطْقِ والعَلَمِ

فـأيـدوا بـالـفِـعـالِ الـغُـرِّ ديـنُـكُـمُ فقيمـة الحب عنـدي أعظم القيَمِ

ما الدينُ إلا هوىً في نفس عاشقهِ ومـنْ يـبُـحْ بـالـهـوى يوم النّوى يُلَـمِ

سيّـان يـا قـومُ مـن يقضـي بلا أملٍ ومـنْ يـنـالُ المُنـى في عـالمِ الـعَـدَمِ

صـوفيّةٌ أدركتها النفسُ فانصرفتْ عـن الـدنـايـا ومـنْ يـهْـوَ الـعُـلا يصُـمِ

فاستهدِ بالروحِ في الأفلاكِ واهوَ كما تـهـوى الملائـكُ وجـه الـلـهِ واسـتـقِـمِ

وقُـلْ لمنْ أدمتْ الأهـواءُ مـهـجـتـهُ أمَـا اكـتـفـيـت مـن الـدنـيـا بـحـبّـهِـمِ

رَمَـتْ فـؤادي بسـهـمِ الحُسْنِ فـاتـنـةٌ فـاعـجبْ لصَـبٍّ جـريـحٍ ثـابـتِ الـقَـدَمِ

نَـدَتْ أنــاشــيــدهُ نيرانَ لــوعــتــهِ فـفـرّجَـتْ عـن عـلـيـلٍ بـالجـمـالِ رُمِـي

إنْ لم يخلّد فؤادي الحبُّ فالتمِسِ يا نفسُ كهفاً ببطن الأرضِ واعتصِمِ

عـلَّ المنـيـةَ تـنـسـاني كـمـا نسـيتْ عرائسُ البحرِ صيد النسرِ في القِمَمِ

يا نفحةً من جنان الخُلد ساريةً كالوردِ يُلْثمُ في الأسحارِ من أمَمِ

إني مُحبٌّ ومحبوبٌ ولوْ زعموا أن المحبةَ بالأنسابِ والرَّحِمِ

فالناسُ من آدمٍ بالمُصطفى اجتمعوا وشِرعةُ الحبِّ أمُّ الناسِ فائتمِ

يا أجملَ الخَلْقِ سيمَاءً وأظرفهم طبعاً وأوفاهمُ بالعهدِ والذّممِ

عشقتُ منك صفاتٍ جلَّ مُبدِعها كالغيدِ تفتنُ لُبَّ الشاعرِ الفهِمِ

يرنو فيمنحهُ وحياً يخلّدهُ ورُبَّ حُبٍّ مُثيرٍ جاء بالعِظَمِ

ورُبَّ نجمٍ مُنيرٍ يستضيءُ بِكُمُ فأنتمُ الشمسُ لمْ تُدرَكْ ولمْ تُرَمِ

وحُسْنُ شِعري بكمْ من شمسكم قبسٌ والنبعُ ما سالَ لولا صيّبُ الدِّيَمِ

فإنْ أجدتُ بهذا الطّلِّ مدحكمُ فكلُّ معنىً بكم كالهاطِلِ العَرِمِ

حيّاك ربّي بآياتٍ مفصّلةٍ والناسُ أعجزُ عن إدراكِ ربّهمِ

لكنها صورةٌ بالشّعْرِ أرسمها لأستجيرَ بها إنْ بِتُّ كالحُلُمِ

* * *

يا هاديَ الفكرِ أهداهُ الإلهُ إلى عبادهِ مِنّةً من فضلهِ العَمِمِ

إنْ يمدحوك بأبياتٍ مُنمّقةٍ فأنت تفْرُقُ قلبي عن قلوبِهِمِ

تبارك اللهُ لوْ شاءت مراحمهُ لشعَّ نورُكَ بين الناسِ كلّهمِ!

إنْ لمْ تكنْ بوكيلٍ فاشفعنّ لنا بحقِّ ترديدنا التوحيدَ في الحَرَمِ

* * *

صلّى الإلهُ على محيْاك في مُهَجٍ تحيا بها كحياةِ النورِ في السُّدُمِ

صلى الإلهُ على مثواك ما صدحتْ ورقاءُ أوْ هينمتْ عطريّةُ النّسَمِ

صلّى الإلهُ على ذِكْراك مُمتدِحاً حتى تؤمّ صلاةَ البعثِ بالأُممِ

المحتويات